

.. ونص سعد الله تنويع إبداعي على معارف متجذّرة في ما هو اجتماعي – تاريخي يخصّ الإنسان العربي في علاقته بحريته، وجسده، وفكره، كما في علاقته بسياسة حكّامه المستبدين، بالغزاة المعتدين، بالسائد من المعتقدات، بالمفاهيم والمعارف المنحرفة عن أهدافها النبيلة، وبالتالي، بعيش يومي بائس، وتاريخ تتكررّ هزيمته.

تمتد دلالات منمنمات تاريخية البعيدة إلينا نحن القرّاء في هذا الزمن العربي، تحاور وعينا، وضمائرنا، تعيد إلى السياسة، إلى المواقف المسؤولة، وإلى الخيارات المصيرية.. معنى الكرامة والأخلاق...

د. يمنى العيد

منمنمات تاريخية تنتمي لهذا النوع من الأدب الذي يطالب بإعادة النظر ليس فقد بالقناعات التاريخية السائدة والمستقرّة، بل ويطالب أيضاً بمناقشة: المواقف الأخلاقية التي يجب أن تتّسم بها الثقافة؛ العلاقة بين المعرفة والسلوك؛ دور الثقافة والمعرفة، وهل يجب أن يكونا في خدمة القوة والسلطان، أم في زيادة وعي الناس وصقل أرواحهم؛ العلاقة بين الطموح المشروع للمثقف واغراءات السلطة والمال...

د: عبد الرحمن منيف

لا أكاد أجد في تراثنا المسرحي المعاصر نموذجاً آخر ارتفع إلى هذا المستوى المسرحي الرائع لمسرحية "باب الفتوح" (لمحمود دياب)- وعياً عقلانياً بالتاريخ ونقداً ابداعياً له – مثل مسرحية "منمنمات تاريخية" لسعد الله ونّوس، التي استأنف بها مرحلة جديدة متميزة من إبداعه المسرحي، والتي تضمّنت كذلك – فيما تضمنت – رؤية نقدية لعالم من العلماء ذوي المكانة الرفيعة في تراثنا الفكري هو عبد الرحمن بن خلدون.

محمود أمين العالم

مُنَمْنَمَاتٌ تارِيخيَّة

مسرحية

سعد الله ونّوس

دار الآداب – بيروت
الطبعة الأولى
1996

المنمنمة الأولى
الشيخ برهان الدين التاذلي
أو
الهزيمة

مؤرّخ قديم: .. ثم دخلت سنة ثلاث وثمانمائة والخليفة أمير المؤمنين المتوكّل على الله والسلطان فرج بن برقوق. وكان سعر غرارة القمح خمسين درهماً. والشعير والفول بثلاثين فما دونها، والأرز بمائة وخمسين درهماً. وهذا الغلاء في مصر والشام لم يُعهد من قبل. وفي التاسع من المحرم قدم البريد من دمشق بأن تيمورلنك نزل على سيواس.

وفي ثاني عشره يوم الخميس، استقرّ القاضي نور الدين بن مكي الدميري قاضي قضاة المالكية عوضاً عن القاضي ولي الدّين عبد الرحمن بن خلدون على مال وعد به.

وفي سلخه انحصر السلطان من قاضي قضاة المالكي ابن مكي الدميري فعزله وأعاد ابن خلدون المالكي.

وفي صفر، أوّله الثلاثاء، في ثانيه وُجِد شاب أمرد قد قتل ورُمي في التربة التي بالحدرة. فأُخِذ وغُسّل وكُفّن بوزره، ولم يعرف من هون، ولا من قتله. نسأل الله العفو.

وفي سابعه وصل إلى دمشق مبعوث السلطان الأمير اسبنقا ومعه رسالة إلى النائب والقضاة بخروج العساكر الشامية إلى حلب، وفيها يحضّ على قتال تيمور، ويقول إنّا واصلون عقب ذلك.

وفي خامس عشره خرج نائب دمشق ومعه العساكر الشامية قاصداً حلب، ونودي في البلد بمنع الناس من كراء الدواب للسفر وبمنع الناس من المسافرة، ونودي أيضاً بأمر القضاة بالكفّ عن المنكرات.
وفي ربيع الأول، في ثانية عمل السلطان المولد النبوي على العادة.
وفي خامس عشره وصل بريدي إلى دمشق ومعه بطاقة بكسرة العسكر الشامي وسقوط مدينة حلب في يد تيمورلنك. وقد فعلوا فيها من الأفعال الشنيعة ما تشيب له النواصي على ما سنبين، نسأل الله النجاة. ونودي علىالناس بالتحوّل إلى البلد، والاستعداد للعدوّ. فاختبط الحال، وحصل الضجيج والبكاء، وأخذ النّاس في النّقلة من حول البلد إلى داخلها.
وفي ثامن عشره وصل الهاربون من حلب وحماة، وأخبروا أن تيمور لنك متوجّه بعساكره إلى دمشق.
وفي تاسع عشره همّ نائب الغيبة في دمشق بالفرار، فوقف له العامّة وأهل القبيبات ينتظرونه، فلما خرج، ضربوا بالمقاليع وسلّوا السيوف ونالوا منه، فرجع إلى دار السعادة. وفي نهر بردى يجري الماء في غاية الضحالة وقد كثرت الضفادع فيه كثرة فاحشة.

***

تفصيل (1)

(ساحة صغيرة وسوق تجارية)
المنادي: (مع دقات الطبل) يرسم نائب الغيبة ويأمر. يا أهل الشام يُمنع إشهار السلاح أو الضرب بالمقلاع، يا أهل الشام يُمنع التعرّض لمن أراد السفر، ونسلّم المدينة بالأمان.
(يعترضه شاب يتقلد سيفاً، ويتجمهر الناس، دلامة التاجر وابنه علاء وآخرون..)
أحمد : اخرس . قطع الله لسانك.
المنادي: إنها أوامر النائب .
أحمد : اذهب وضع أوامر النائب في دبره.
المنادي: ومن تكون أيه االغرّ؟! اشهدوا يا ناس: إنه يسبّ النائب.
أحمد: (مجرداً سيفه) إمش قبل أن أبتلى بك.
المنادي: (وهو يخرج فزعاً) انتظر حتى أخبر النائب. أيها الناس سأطلب شهادتكم.
أحمد: ومن يخاف هذه الحرمة؟! امش وإلا بعجت بطنك وطلبك.
دلامة: لماذا تحامقت عليه أيها الشاب؟

أحمد: ألم تسمعه.! إنه يحضّ الناس على الفرار.

دلامة: هذه شؤون خطيرة ، ولا يجوز أن يخوض فيها إلا الكبار.

أحمد: بل يجب أن يخوض فيها الجميع.

دلامة: والله ما أفلحنا إذا صار كلّ واحد في هذه المدينة رأساً.

أحمد : والله ستضيع رؤوسنا، إذا بقي هذا النائب رأساً.

دلامة: ولكن أخبرنا من أنت؟

أحمد: أنا ابن الشاغور . قدوتي وشيخي برهان الدّين التاذلي، فأخبر بما علمت.

(يخرج)

بهاء: ما أعجب جرأته!

دلامة: تطاولٌ ولكاعة.. لا أصدق. الشيخ التاذلي عالم تقيّ، وهو يعرف الأصول والمقامات.

(يدخل رجل غريب رثّ الهيئة يكاد يتساقط من الإعياء، ومعه غلام يسنده ، يلتفّ حولهما الناس.)

رجل1: الرجل قادم من حلب.

رجل2: أكنت هناك؟

الحلبي: إي وربي الذي نجاني من الهلاك.

دلامة: ماذا وراءك؟

الحلبي: الجوع والفزع.

دلامة: نسألك عن حلب وتيمور!

الحلبي: ضاعت حلب، ولم يبق فيها ما هو قائم إلا مئذنة من الجماجم.

رجل2: مئذنة من الجماجم!

الحلبي: إي وربي. بني من رؤوس القتلى مئذنة لا مثيل لها محيطاً وارتفاعاً.

رجل2: يا عفو الله.!

رجل1: هذه أشراط الساعة.

دلامة: وعسكرنا؟!

الحلبي: عسكرنا؟! ماذا أخبركم.. لم تبدأ المعركة حتى انهزم الأمراء والفرسان. داسوا المشاة وهم يولّون الأدبار. وسيوف الكفّار وراءهم تنقضّ على الراكب والراجل. جرت مقتلة عظيمة، ولم يجر قتال. يقولون إن أمير حلب وطأ تيمور، والله أعلم بحقيقة الحال.

رجل1: لا يواطئ هذا الكافر إلا كافر مثله.

رجل2: كم مرة هزمتنا الخيانة دون قتال!

دلامة: دعكم من الأقوال والحكايات.. هذا العدو لا يحتاج إلى مواطأة أمير. إنه يقتحم الممالك والبلاد كأنه إعصار.

الحلبي: إي وربي إنه إعصار من الدماء.

دلامة: وهل تعرف أين وصل الآن؟

الحلبي: في الطريق، علمت أنه وصل حماة.

رجل1: إذن هو أقرب مما نحسب.

رجل2: لعله الآن في حمص.

رجل1: ومع هذا لا شيء ينبئ بأن السلطان قادم.

رجل2: ماذا نفعل؟

الحلبي: احملوا ما خفّ وغلا، واطلبوا أطراف البلاد.

رجل1: أهذا ما تنصح به!

الحلبي: لو رأيتم بعض ما ارتكبوه في حلب. لقلتم هذه النصيحة.

رجل2: ربما كان الرحيل هو الحل.

(يبدؤون بالانسحاب)

دلامة: ما أعلنه النائب هو التدبير السديد. نسلّم المدينة بالأمان.

رجل1: يا نجيّ الألطاف نجّنا مما نخاف.

الحلبي: يا أهل الخير.. لا تنسوا حاجتي.

دلامة: وما حاجتك؟

الحلبي: لقمة تسد الرمق ومكان آوي إليه.

دلامة: ألا تحمل مالاً أو ذهباً؟!

الحلبي: والله يا أخي كان لي أهل وكنت ميسور الحال..

(يغض بالبكاء)

صوت: (بين الأنين والصياح) يامّه .. يامّه .

دلامة : جاء شعبان المجذوب.. عمي الجامع قريب، وقد تجد فيه رغيفاً وحصيراً..

(يدخل شعبان . وهو رجل مجذوب. ثيابه أسمال غريبة. يبتعد دلامة)

شعبان: يامّه.. يامّه.. هاتي صدرك يامّه. جوعان.. حليب.. حليب. يامّه. (يحدق في الغلام الذي يندس في خاصرة أبيه. بهدوء مخيف) هاتي صدرك يامّه..

الحلبي: (منتفضاً) هذا غلام . إنه ابني.

شعبان: يامّه جوعان.

الحلبي: ونحن أيضاً جائعان. منذ يومين لم نأكل شيئاً . ليتنا متنا مع أهلنا في حلب.

شعبان: (بعذوبة) جائعان.!

الحلبي: يا ابن الحلال يكفينا ما نحن فيه.. (يضمّ الغلام إليه) لماذا نجونا. أما كان الموت أستر؟!

(يُخرج شعبان من كيسه رغيفاً وسفرجلة. ويضعهما في حضن الرجل.)

شعبان: يامّه هاتي صدرك يامّه.

(يدخل المنادي، يحرسه مملوكان يشهران سيفهما..)

المنادي: يرسم نائب الغيبة ويأمر.. يا أهل الشام يُمنع إشهار السلاح أو الضرب بالمقلاع. يا أهل الشام يمنع التعرض لمن أراد السفر. ونسلم المدينة بالأمان.

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (2)

(ديوان في قلعة دمشق. نائب القلعة الأمير عز الدين آذدار، ومعاونه شهاب الدين الزردكاش.. والشيخ برهان الدين التاذلي)

التاذلي: المدينة تجيش وتضطرب أيها الأمير.

آزدار: ما الأمر؟

التاذلي: تبلبلت الخواطر، والناس تتزاحم على السفر.

آزدار : أيخلون المدينة؟

التاذلي: روّعتهم الأنباء، وليس من يقودهم في هذه الشدّة.

آزدار: ماذا يفعل نائب الغيبة إذن؟!

التاذلي: تلك هي الحقيقة. ما ظهر من جبنه وحمقه قطع حيل الناس. ألا تعلم! لولا رجال القبيبات وفتياني لفرّ تاركاً البلد وشأنه. وفي هذه الساعة يدور مناديه داعياً إلى تسليم البلد بالأمان.

آزدار: يسلم البلد؟! ومن اجاز له ذلك؟ ما رأي السلطان؟ ما رأي العلماء والأعيان؟

التاذلي: وهل سأل أحداً رأيه؟

آزدار: لا لا نوافق على تسليم البلد. هذا طيش وحمق.

التاذلي: ولهذا فإن المدينة تستجير بك أيها الأمير.

آزدار : ماذا يمكن أن أفعل. أنا أتصرف في هذه القلعة. وقد حصّنتها أفضل تحصين. وتهيأت مع رجالي لكل ما يأتي.

التاذلي: أعرف أنك حصّنت ، وأنك تهيأت. مثلك أيها الأمير لا يقال له ما ينبغي أن يفعل. لكن المدينة وقلعتها جسد واحد. وتحصين بعض الجسد لا يفيد، اذا كانت بقيّته مكشوفة يتناهبها الرعب والفوضى.

شهاب الدين: أيأذن لي الأمير؟

آزدار: تكلم.

شهاب الدين: ما يقوله الشيخ صحيح. تحصين القلعة لا يكتمل، إلا إذا حُصِّنت المدينة، وضُبِط أمرها.

آزدار: سلطتي لا تشمل المدينة.

التاذلي: منذ اليوم، يجب أن تشمل سلطتك المدينة.

آزدار: هل أدّعي حقاً ليس لي.!

التاذلي: في هذا الوقت، المدافع عن الحق له كل الحقوق.

شهاب الدين: ومن أجدر منك بحماية المدينة حين يتخاذل نائبها؟

آزدار: أخشى أن يُنسب ذلك إلى الطمع، أو أن يغضب السلطان.

التاذلي: لا يجوز أن تشغل بالك هذه الهواجس. إننا لا نبسط لك نفوذاً، بل نلقي على عاتقك أمانه ثقيلة. فكيف يمكن أن يُذكر الطمع، أو أن يغضب السلطان!

شهاب الدين: من المهم أن تظلّ دمشق حصينة، سواء عزم السلطان على الحرب. أم قُدِّر علينا أن نواجه العدو وحدنا.

التاذلي: هل ترضى أيها الأمير أن تسلم المدينة بلا قتال؟

آزدار: أعوذ بالله.. كيف أرضى؟

التاذلي: إذن تولّ أمرها، واضبط شؤونها.

آزدار: ونائب الغيبة..! ماذا نفعل به؟

التاذلي: دعه يهرب، أو ارفعه إلى القلعة.

آزدار: لا أستطيع أن أرفعه إلى القلعة دون أمر سلطاني.

شهاب الدين: نطلب منه أن يسافر اذا أحب، أو يلزم قصره.

التاذلي: فليسافر، ولنغلق أبواب البلد خلفه.

آزدار: وهل يشاطرك العلماء، والأعيان رأيك يا شيخ؟

التاذلي: العلماء والأعيان أهل دين ونخوة. وهم يعرفون أنهم مكلّفون بحفظ البلد وحمايته. اللهم صلّ على محمد وعلى آله، وصحبه أجمعين.. كنت أترجّح بين النوم والصحو، حين وافاني حبيب الله، النبي المصطفى اقشعرّت الظلمة حوله، وتهاربت. كان يلفّه سربال أخضر، وكان وجهه كالشراج المنير. اقترب ، وفاض حولي خضرة ونوراً. وبصوت عميق حنون قال لي: هذه المدينة عزيزة على قلبي، فانهضوا وحاموا عنها. والذي بعثني رسولاً، وأسكنني جنّته، لن تقوم لكم قائمة اذا دخلها عدوّي تيمور. ولا تخشَوا الموت فأنا جالس على الضفّة . ثم انفتل عنّي وابتعد. فزعت من الفراش محموماً، فتراءت لي نجمة تنأى، وتختفي في العتمة. قل لي أيها الأمير.. أهناك تكليف أوضح من هذا التكليف؟

آزدار : إن شاء الله، لن يدخلها ونحن أحياء.

التاذلي: إذن فلنبادر إلى تهدئة الخواطر، وتنظيم الدفاع عن الأسوار.

آزدار: ليحضر المنادي.

شهاب الدين: سأدعوه حالاً.

آزدار : وأنت يا شيخ اجمع العلماء وادعُ الناس إلى المصابرة والجهاد.

التاذلي : اتكل عليّ في هذا الأمر.

(يتلاشى الضوء)

تفصيل (3)

(بيت في المدينة. خديجة ومروان . زوجان شابان.)

مروان: هل نتَّكِلُ على الله ؟

خديجة: كما تريد.

مروان: لا يبدو أنك راغبة.

خديجة: لا تهتم بي. قلت لك فصّل وأنا ألبس.

مروان: هل تفضلين أن نبقى؟

خديجة: أفضّل ما تختاره.

مروان: أصدقني القول. هل تريدين السفر أم البقاء؟

خديجة: ألا تزعل؟

مروان: ولم الزعل؟

خديجة: أفضل البقاء.

مروان: هذا رأي أخيك.

خديجة: لا.. لا علاقة لأخي، هذا ما أشعر به. ينعصر قلبي، كلما فكرت في السفر. ومن يدري.. قد نخسر بيتنا، والنّوْل الذي هو رزقنا.

مروان: نعم.. النّوْل! وهل يكسر رجلي إلا هذا النّوْل؟. تعبت كثيراً حتى ارتفعت من أجير إلى صاحب نوْل.

خديجة: ماذا يحل بنا إذا ضاع؟!

مروان: ولكن ما نفع النول والبيت اذا خسرتك.. لم نكد نبدأ حياتنا. إنّي خائف عليك.

خديجة: فوّض الأمر لله يا ابن عمي. لن يصيبنا إلا ما يصيب الجميع. وإذا بقي المرء مع أهله وقومه خير من أن يتشرد في الدروب والفلوات.

مروان: لو علمت أفعالهم في حلب.. فظاعات.. فظاعات.. تقشعر لها الأبدان.. لا.. الأسلم هو أن نسافر حتى تنجلي هذه الغمّة.

خديجة: الصرة جاهزة، وفيها كل ما يمكن أن نحمله.

مروان: نعم.. السفر أفضل من البقاء. القادم من حلب قال لنا: تلك هي النصيحة . نعم.. علينا أن نتوكل على الله ونسافر ألم تَنْسي شيئاً؟

خديجة: كم مرة تفقدنا الصرة؟!

مروان: كأنك غاضبة.

خديجة: بل تعبت من التردد والجدل. منذ الفجر ونحن نعذّب أنفسنا . إذا عزمت فلنمشِ..

مروان: أتظنين أن القرار سهل! أن أترك كل شيء.. النول، والبيت وعملي.. أنا أيضاً متردد. ولكن حين أتخيل أنهم يفعلون بـــ.. بنا تلك الشناعات، ينطفئ الضوء في عينيّ.

خديجة: لا ريب أنك تقدّر الأمور خيراً مني.

مروان: أتقولين ذلك مسايرة أم اقتناعاً؟

خديجة: يا ابن عمي.. أعيد وأكرر. فصّل وأنا ألبس.

مروان: ما أحلى وجهك هذا الصباح!. المال يروح ويجيء.. أما أنت فأين أجد أنتِ. كيف يمكن ان أخاطر بكِ؟! هل أخاطر بالحرير، وفواكه الجنة؟!

خديجة: ألن نسافر؟؟

مروان: دعيني أتزوّد من عسلك قبل السفر.

خديجة: لا.. ليس الآن.. مروان..

(طرق على الباب)

مروان: من؟.. تواري حتى افتح الباب.

(يقترب من الباب) من؟..

أحمد: (من الخارج) أنا أحمد.

مروان: (وهو يفتح الباب) إنه أخوك..

أحمد: (وهو يدخل) خفت ألا أجدكما..

مروان: (بعصبية وحزم) أنا وخديجة، قررنا أن نسافر اليوم.

أحمد: هل وافقت يا خديجة؟

خديجة: ربما كان مصيباً يا أخي.

مروان: لن نعود إلى مناقشة الموضوع. يكفي نقاش الأمس.

أحمد: لم يعد هناك ما نناقشه.

مروان: ماذا تعني؟

أحمد: لا سفر بعد الآن.

مروان: هل تفرض علينا البقاء!

أحمد: فارس القلعة وأميرها هو الذي يفرض على الجميع البقاء. أغلق الأبواب ومنع السفر.

مروان: منع السفر؟!

أحمد: وقرر أن يحصّن المدينة، ويسلّح الرجال.

مروان: لعلها شائعة. إذا لم تكن متأكداً..

أحمد: منذ الصباح ومنادي القلعة يعلن الأوامر في المدينة، عما قليل سيكون هنا في الحارة.

مروان: أرأيتِ ما فعله بنا التردّ؟

خديجة: وما ذنبي؟! هل عوّقتك أو خالفتك؟

مروان: لم ألمس منك حماسة ولا قبولا.

أحمد: خيراً فَعَلْتَ.

مروان: (غاضباً) لماذا؟ ألا تعرف ماذا فعلوه بأهل حلب ونسائها. أتظن أني قررت السفر خوفاً على نفسي؟ لا والله ما قررت السفر إلا خوفاً على خديجة.

أحمد: الفرار لا يحمي خديجة.

مروان: ماذا يحميها إذن؟

أحمد: أن نقاتل من اجلها.

مروان: أقاتل؟ ولكني لم أحمل سلاحاً في حياتي.

أحمد: اليوم، يجب أن يحمل كل رجل سلاحاً.

مروان: إني صاحب نول. ولا أفهم إلا في الحياكة والحرير.

أحمد: لا يحتاج السلاح إلا إلى العزيمة.

مروان: ما رأيك يا خديجة؟

خديجة: هذا أمر يقرره الرجال.

أحمد: اسمع يا ابن خالي وصهري، باب السفر مسدود. ونحن في هذه المدينة أمام خيارين. إما أن تستباح الحياة والأعراض، وإما أن نقاتل. فماذا تختار؟

مروان: هل تعتقد فعلاً أني أصلح للقتال؟

أحمد: ماذا ينقصك؟

مروان: لست مدرباً، وليس لديّ سلاح.

أحمد: سأوفر لك السلاح والتدريب.

مروان: متى؟

أحمد: اليوم.. بل الآن.

مروان: هيا بنا.

أحمد: هل عزمت؟..

مروان: قلت .. هيا بنا.

أحمد: أخيراً وجدت مروان الذي أتمنى.

خديجة: وأنا سأفك الصرة وأهييء لكما الغداء. (يخرجان) حماكما الله.

المنادي: (يتناهى صوته من بعيد ، ثم يقترب تدريجياً) يا أهل الشام.. يرسم نائب القلعة ويأمر : من يهرب يُنهَب . والمدينة تُحصّن وتُحفَظ.. ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً، يا أهل الشام.. يرسم نائب القلعة ويأمر : المدينة تحصّن وتحفظ.. ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً.. يا أهل الشام من يهرب يُنهب.

(تتلاشى الاضاءة)

مؤرخ قديم : وفيه، ربيع الأول جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن الملك الأشرف إسماعيل بن عباس. وكان كفواً لملك اليمن. وفي واحد وعشرينه خرج من مقابر باب الصغير نجم كبير وجرى جرياً شديداً إلى جهة القبلة، وله هدير كهدير البعير، فأجمع الناس على السفر، وخرجت النساء حاسرات، واستغاث الصغار ، وكان الوقت عجيباً. وفيه أمر نائب قلعة دمشق بهدم وإحراق ما حول الخندق من البناء، فحصلت شدة للناس، وأفحشت النساء في الدعاء على النائب ورجاله. ثم توقف ذلك حتى يؤمن لهم محلات للسكن. وقد حُصنت القلعة تحصيناً تاماً، وحمل إليها ما تحتاجه من تموين، ونُصبِت المجانيق..

وفيه كثر القادمون من حلب وحماة فعظمت المخاوف، وانتشرت الأراجيف.

وفي ثامن وعشرينه جاء خبر بوصول السلطان معه عساكره إلى الريدانية فدقّت البشائر، واطمأنت خواطر الناس، ثم تبيّن بعد ذلك أن العساكر المصرية لم تخرج، وإنما جاء البريد من مصر.

وفيه حصل برد شديد دون أمطار، وما زال بردى على حاله من النقص وقلة المياه.

تفصيل (4)

(ركن في صحن الجامع الأموي. حلقة تضمّ الشيخ التاذلي، ومحيي الدين بن العزّ ، وتقيّ الدين بن مفلح، وشمس الدين النابلسي وكلهم قضاة مذاهب وعلماء. بعيداً عنهم، ثمّة حلقات أخرى من طوائف القرّاء والفقراء.)

التاذلي: الأمانة ثقيلة أيها العلماء.. وفي هذه الشدّة علينا أن ننهض رجلاً واحداً، وكلمة واحدة.
ابن النابلسي: إذا صفت النوايا اتّحدت القلوب.
التاذلي: النوايا صافية إن شاء الله.
ابن النابلسي: قولوا إن شاء الله.
الجميع: إن شاء الله.
التاذلي: سيزداد أمر الناس بلبلة وفساداً إن لم نكن رأياً واحداً.
ابن النابلسي: إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.
ابن العزّ: بعد الخمول الذي أبداه نائب الغيبة، لا نمانع أن يتولى أمير القلعة حفظ المدينة. لكن ينبغي أن يترك لنا تصريف الأمور وإدارة شؤون الناس.
ابن النابلسي: أو أن يشاورنا في كل ما يقرر، أو يفعل.
التاذلي: قلت لكم هو زاهد في السلطة، ولولا إلحاحي ما قبل أن يخرج من قلعته.
ابن النابلسي: إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.
التاذلي: النوايا صافية يا شيخ.
ابن النابلسي: ألن يمدّ يده إلى الأوقاف؟
التاذلي: ليس لديه مطمع في الأوقاف أو سواها. ولكن إذا أردنا التحصين، ألا ينبغي أن يعطي القائمون على الأوقاف والمقتدرون بعضاً من مالهم؟
ابن النابلسي: يعطي كل واحد ما يرغب في عطائه.
ابن العز: لماذا نختلف في الأمور قبل أوانها؟
ابن النابلسي: لأنه إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.
التاذلي: النوايا صافية إن شاء الله. ونحن مكلفون أيها العلماء. كما أراكم الآن تراءى لي سيد المرسلين، وبلغني مدينتكم. فهل نخذل نبيّنا؟
ابن النابلسي: معاذ الله.
ابن العزّ: والله ارتعش بدني حين سمعتك تقصّ رؤياك.
التاذلي: وأنت يا ابن مفلح. لماذا لا تقول شيئاً؟
ابن مفلح: هناك بيوت وأملاك خارج الأسوار فماذا نفعل بها؟.
ابن النابلسي: من حقك أن تطمئن على أرزاقك.

ابن مفلح: أرزاقي وأرزاق الكثيرين من الناس.

التاذلي: يجب أن تُحمى شأنها شأن المدينة.

ابن مفلح: لا يضرّ لو فاتحنا الأمير، وطلبنا أن يرتّب لها الحماية اللازمة.

التاذلي: ولم لا؟ سنفاتحه حين نلتقيه.

ابن النابلسي: إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.

التاذلي: هل بقي في الخواطر شيء؟

ابن النابلسي: بقيت مسألة جمال الدين بن الشرائجي.

التاذلي: نعم.. هذا الضالّ (ينادي) هاتوا ابن الشرائجي.

ابن النابلسي: يجب أن نجعله عبرة لأهل الضلالات والأهواء.

التاذلي: لا تسامُحَ مع الذين أزاغ الله قلوبهم.

(يدفع رجلان معمّمان الشيخ جمال الدين بن الشرائجي إلى حلقة العلماء. وأحد المعمّمين يحمل كيساً من الكتب المخطوطة. يبدأ الناس بالاقتراب محتشدين حول الحلقة.)

التاذلي: أتخلّط في الدين يا ابن الشرائجي.. أخبرنا يا شمس الدّين ما علمت من امره.

ابن النابلسي: بقي ابن الشرائجي يواظب على دروسي حيناً من الزمن. وكان مجتهداً ومؤدباً لولا ميل إلى الفضول طالما نهيته عنه. ثم أبدى لي الجفوة والجحود. وانقطعت عنّي أخباره، حتى علمت أنه انغمس في الضلال انغماساً فاحشاً.

جمال الدين: جفوت مجلسك يا شيخ حين عرفت أنك رقيق العلم والدين. تتوه في المسائل ، وتستحلّ الأوقاف. فكيف يجوز لمثلك أن يرمي الناس بالضلال؟

ابن النابلسي: (يهجم عليه ويصفعه) أتتهمني في ديني وعلمي يا ثعبان الكفر والجحود؟

ابن العز: (يصفعه بدوره) وفوق الزندقة صفاقة يا ابن الفاعلة.

جمال الدين: ما أنت يا ابن العزّ من يحقّ له التعريض بأمهات الناس.

التاذلي: (متدخلاً بحدّة) أقصرْ يا ابن الشرائجي ، ولا تزد قضيّتك سوءاً.

جمال الدين: وما قضيّتي؟

ابن النابلسي: الكفر والزندقة. أيها العلماء.. أخبرني شاهد عدل أن هذا الملحد يخوض في القدر، ويتعامل مقالات الكفار والزنادقة.

ابن مفلح: القدريّة مجوس هذه الأمة.

التاذلي: أتخوض في القدر يا ابن الشرائجي!

جمال الدين: ما وهبنا الله العقل إلا لكي نفكر ونتأمل ونعتبر. قال سبحانه وتعالى "فاعتبروا يا أُولي الأبصار".

التاذلي: ألا تعلم أن الجدل في الدين فتنة؟

جمال الدين: قال سبحانه وتعالى "أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن". وأكمل مراتب الإيمان ما تحصّل بالحكمة.

ابن العز: هذه مقالات الكفار من المتكلمين والفلاسفة.

جمال الدين: وهل يكفر المرء إذا عزّز الإيمان بآيات العقل؟

ابن النابلسي: يا ابن الأفعى.. هل تستجرنا إلى الجدل؟ قل لنا هل تؤمن بالقدر خيره وشره؟

(يتلكأ جمال الدين)

التاذلي: أجب.

جمال الدين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. إني مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويعرف أهلي وجيراني أني منقطع عن الدنيا وزخرفها إلى العبادة والدراسة.

ابن النابلسي: والقدر؟

جمال الدين: لك ما تشاء يا ابن النابلسي، إن الله سبحانه وتعالى عادل. وإنه لا يأمر بالظلم والفساد.. إذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة. ولولا أن الانسان مخيّر وحرّ لما قال الله في كتابه العزيز: "فمالهم لا يُؤمنون" ولما قال: "وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر". فلو كان هو الفاعل لأعمالهم، لما خاطبهم، ولامهم على ما كان منهم من جميل وحسن... إنه سبحانه وتعالى يخاطبنا نحن الذين نعقل ونفهم. وإنه يخاطبنا لأننا أحرار. نعم.. هذا هو الدين إننا أحرار ومخيّرون.

أصوات: (من الحشد) أستغفر الله العظيم.

- شيطان رجيم.

- نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

التاذلي: ويلك يا ابن الشرائجي.. ضيّعت نفسك.

ابن النابلسي: تلك مقالته.. (يتناول كتباً من أحد المعمّمين) وهذه هي ضلالات الشيطان التي يتداولها.

التاذلي: (وهو يتناول الكتب) الردّ على الجهمية والمجبرة. المغني في علوم التوحيد والعدل. فصل المقال. أعوذ بالله. أهذه هي التصانيف التي تنهل منها ضلالك؟ ألا تعرف أن هذه الكتب محظورة؟

جمال الدين: لا يحظّر هذه الكتب إلا الجهل والطغيان.

التاذلي: (يضربه) وتتهم علماء الأمة بالجهل والطغيان أيها الفاسق؟

ابن العز: أقيموا عليه حد الكافر.

أصوات: أقيموا حد الكفر.

- استتيبوه.

- لعلها الجهالة.

جمال الدين: من كفّر مسلماً فقد كفر.

ابن العز: أتعدّ أهل الاعتزال والفلسفة والبدع بين المسلمين؟

جمال الدين: عالم يجتهد خير من عالم يحمل أسفاراً.

ابن مفلح: هذه مكابرة الشيطان.

ابن النابلسي: وكأنه يتباهى بالإلحاد.. أهلكك فضولك يا ابن الشرائجي.

جمال الدين: والله لست مكابراً ولا مباهياً. ولكن الله وهبني عقلاً فلمَ أُعطِّلُه.

ابن مفلح: قوِّموه بالمقارع والتجريس.

جمال الدين: المقارع لا تقوّم إلا العبيد يا ابن مفلح. أما الأحرار فإنهم أقوم من مقرعتك.

ابن النابلسي: الشيطان يتكلم من فمه.

ابن العز: أقيموا عليه حد الكافر

التاذلي: خذوه واضربوه حتى تكسروا كبرياءه. ثم ارفعوه إلى سجن القلعة ريثما ننظر في أمره..

جمال الدين: (وهم يجرونه) ما أتعس حالنا إذا كان علماء الأمة يسمّون الاجتهاد والعلم كفراً.

ابن العز: (وهو يصكّه) اخرس .. قصّر الله لسانك.

ابن النابلسي: والكتب!.. ألا نحرقها؟

التاذلي: نعم .. احرقوها هنا في صحن الجامع.

(يوقدون ناراً في صحن الجامع، ويرمون الكتب فيها).

التاذلي: أيها الناس. كيف نتّقي غضب الله إذا رقّ الإيمان ، وتفشّت مقالات الملحدين؟! حين ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول، سلّط الله علينا الأعداء فخرجت الروم إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذو االثغور الشامية شيئاً بعد شيء. وجاءنا المغول من الشرق، وكادت الأمة تندثر ويفشل ريحها. وحين أقام الناس ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والبتدعين نصرهم الله على الكفار. تحقيقاً لقوله تعالى: "هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح ثريب وبشر المؤمنين".

أيها الناس. ونحن اليوم أمام شدة.. وقد تنادينا نحن علماء الأمة، وأصدرنا فتوى بالجهاد لعدو الله تيمور اللعين. أيها الناس دعونا نمشي معاً في أسواق المدينة، وندعو المسلمين إلى تجارة تنجينا من عذاب أليم.. ليمشِ حاملو المباخر.. وأنتم أيها العلماء.. افتحوا مصاحفكم، ولنمضِ على بركة الله.

(ينتظم موكب مهيب. تتقدمه المباخر والعلماء ووراءهم حشود الفقراء والقرّاء. ويخلوا صحن الجامع تدريجياً من الناس..)

العلماء: (يرتّلون ترتيلاً منغوماً) "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوف إليكم وأنتم لا تظلمون."

(صحن الجامع خال.. والنار موقدة لا تزال. يدخل شعبان)

شعبان: يمّه.. يمه أريد صدرك يمه. جوعان يمه. (يقترب من النار يتدفأ. ثم يدور حولها) أين أنت يمّه. حليب حليب يمّه.

(فجأة يتوقف. يرفع أذيال قمبازه. ثم يبول على النار).

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: ودخل ربيع الثاني حاملاً الخير. فقد وقع مطر كثير جداً مع رعد وبرق، وجرت منه الميازيب. وقد وقع المطر بعد يومين من الحادثة التي جرت مع جمال الدين بن الشرائجي، إذ أحرق القضاة كتبه، ورفعوه إلى سجن القلعة. وقيل إنه يبطن الإلحاد والزندقة. نسأل الله العفو. وفي سادسه خرج السلطان وسائر

الأمراء من القاهرة، ونزل بالريدانية. وتبعه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة. وفيه ضرب الجان طباخاً رافضياً بالخلاء حين بال قائماً. ولم ينطق بعدها إلى ان مات بعد أيام. نسأل الله الرحمة.

وفيه اتخذ التاجر دلامة سرية، واختلف الناس هل هي جارية أم غلام؟ وهذه من النوادر.

وفيه بيع اللحم بسبعة ونصف وهذا شيء لم يُعهد . والناس في غاية الشدة ، والسائلون يملؤون الطرقات والجوامع.

وفي ثامن عشره جاء الخبر بأن السلطان خرج من الريدانية ومعه العساكر المصرية متوجهاً إلى دمشق ففرح الناس بذلك.

وفيه ظلّ جريان الماء في بردى ضعيفاً. ولكن بعد المطر خفّت روائحه.

تفصيل (5)

(في السوق – محل دلامة التاجر. دلامة وابن مفلح)

ابن مفلح: سجّل كيساً ثانياً من الأرز، وجرة من الدبس.

دلامة : هذا احتكار يا شيخ.

ابن مفلح: الوقت صعب يا دلامة.

دلامة: نعم.. الوقت صعب والتهور لا يسهل الأوقات الصعبة..

ابن مفلح: هل أسرفت في الشراء؟

دلامة: ومن يتحدث عن الشراء؟

ابن مفلح: ماذا تعني إذن؟

دلامة: بصراحة.. لا يطربني هذا النفخ في مزمار الجهاد. هل تظن ان هياج العامة وسيوف الأحداث يمكن أن يوقفا تيمور؟

ابن مفلح: حاصَرنا الشيخ التاذلي، ولم يترك لنا مجالاً للاعتراض.

دلامة: هذا الشيخ أصابته لوثة. تهيأ له أن النبي عليه الصلاة والسلام زاره في المنام، فتخبّل عقله. كان ينبغي ألا تسايروه . لقد عجبت إذ رايتك ، وأنت العالم المتروي.. تسير في ركابه، وتنفخ في مزماره.

ابن مفلح: قلت أسايره كيلا تفسد الخواطر، ويرمي بعضنا البعض بالخذلان.

دلامة: ولكن العوام هاجوا، والأحداث تسلّحوا. قد نعجز عن ضبط الأمور حين تحين ساعة القرار.

ابن مفلح: دعنا نأمل الخير، ولا نستبق الحوادث.

دلامة: إذا لم يأت السلطان، أو إذا.. إنك تفهم قصدي . إن ساعة القرار آتية. أنت تعرف لغة العجم. ولك من حسبك وعلمك حصانة . لن نجد من هو أليق منك للسفارة وإنقاذ المدينة.

ابن مفلح: من أوحى لك بهذه الفكرة؟
دلامة: هي فكرتي.. وهي فكرتك أيضاً. ليس ابن مفلح من تدير رأسه المواكب وجعجعة العراضات.
ابن مفلح: اكتم هذه الأفكار، ولا تطلع أحداً عليها.
دلامة: لن ندع التاذلي يجرّنا إلى الخراب، ولن نكرر غلطة حلب. هذه المحنة لا يمكن تجاوزها إلا بالتدبير والسياسة.
ابن مفلح: اضبط لسانك، وكل شيء بأوانه.
دلامة: إذن نحن متّفقان. كنت اعلم أنك الرجل الذي نحتاجه.
ابن مفلح: اللهم قدّرنا على ما فيه الخير والصواب.
دلامة: آمين.. يا رب العالمين.
ابن مفلح: غداً أرسل الخادم والدابة لحمل البضاعة.
دلامة: دعه يأت قبل الفجر. لا أريد أن تفترسنا العيون.
ابن مفلح: هل صرت تبيع بالسر؟
دلامة: الوقت صعب يا شيخ.
ابن مفلح: إنه الله لا يحب المحتكرين.
دلامة: ولا النمامين.
ابن مفلح: غلبتني يا دلامة.
(يخرج ابن مفلح ضاحكاً)
دلامة: هذا عالمٌ راجح العقل. إذا ضاقت سيتولى الأمر ويعقد لنا الصفقة. ما من عقدة لا تحلها صفقة. شيء من الكياسة والسياسة. هم يبيعون ونحن نشتري، ثم نبرم الاتفاق. هؤلاء الحمقى يملؤون البلد هرجاً ومرجاً، لأنهم لا يعرفون كيف يعقدون صفقة. لن نتركهم يجروننا إلى الدمار. فالبلد لنا لا للحمقى والمخرفين. نحن نفهم الدنيا، ونعرف كيف تنشأ الوقائع والحوادث! هل جرّد ذلك التتري الجلف سيفه وركب جموعه إلا يغنم عظمة. وهل يتردد سلطاننا ، ويتخاذل إلا لأنه يخشى أن يخسر العظيمة التي يعضّ عليها. وكلاهما يخفي خلف السيف والدرع تاجراً أخرق. الخصومات، والفتن والحروب كلها ألوان من التجارة. لكنها تجارة خرقاء.. لا يعرف القائمون بها أصول التجارة، لا يتحلون بفضائل التجار. لدي أفكار. نعم لدي أفكار.
(يدخل الابن بهاء متجهّم الأسارير)
دلامة: (يباعد المشخّص بينه وبين الدّور) وأحس دلامة التاجر الذي عاش في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجري، أنه يحلق ، وأن الأفكار تنفجر في رأسه كالبروق. جاء ابنه، وأخبره أن مخازنهم المكتومة ضاقت بالبضائع التي أرادوا إخفاءها. وكان في وجهه تجهّم وكدر. وبعد طول تردد قال:
بهاء: إننا نستغل محنة الناس يا أبي.
(لم يغضب دلامة، ولم ينهره كما تعود. بل قال له بحنان..)
دلامة: (يستعيد المشخص دوره) اسمع يا بني.. أنا تاجر: يعرف أصول التجارة، ويتحلى بمزايا التجار. والتاجر هو الذي يتكيف مع الأوقات، ويغتنم المناسبات : إن الله سبحانه وتعالى حبّبنا بالربح وأغرانا به. تأمل هذه الدنيا. وقل لي ماذا تكون، إنها دار تجارة. الإنسان فيها يبيع أعمالاً وعبادة وتقوى، والله ينقده ثواباً، ومقاماً في الجنة. وبضاعة الانسان رخيصة، لكن الله سبحانه وتعالى يغريه، ويضاعف له الربح أضعافاً لا يحدها عقل ولا قياس، التجارة محمودة ، وربحها محمود. ألم يشرف الله التجارة ويضرب بها الأمثال.. ألم

يشبه حياة الانسان وعمله بالصفقة؟ إن التاجر يهتدي برب العالمين، ويعمل على غراره. إنه يستخدم الميزان والسجل والحساب والربح والخسارة. التجارة هو صورة الدنيا، وهي أصل النشاط والاستقرار والعمران..
آه .. يا بني لو كان الملك للتجار لعمّ الرخاء والأمان، وانتظم أمر البلاد انتظام أوقات الصلاة. وحتى لو قامت فتن أو حروب، فستكون فتناً وحروباً مدروسة لا تؤدي إلى الخراب، بل إلى ازدهار الأعمال والمنافع. لديّ أفكار. نعم.. لديّ أفكار (يعود المشخّص إلى أداء المباعدة) وكان دلامة التاجر الذي عاش في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجري، يحس أنه يطفو فوق فيض دافق من الإلهام . وأنه أذكى من السلطان فرج بن برقوق، ومن العلج تيمور، وان دمشق لن ينقذها إلا صفقة ذكية.

بهاء الدين: أين نخبّئ ما تبقى؟

دلامة: هل صرفت الحمالين؟

بهاء: لا.. إنهم ينتظرون.

دلامة: إذن.. انقلوها إلى البيت ريثما نؤمّن مخزناً جديداً.

(فيما يخرج بهاء، يقترب الحلبي والغلام الذي يرافقه)

دلامة: كيف وجدت الإقامة بيننا أيها الغريب؟

الحلبي: ليتني قضيت مع أهلي وولدي، لا شك ن ذنوبي عظيمة. نجوت من هلاك تيمور لأذوق كل يوم ما هو أمر من الهلاك.

دلامة: شدّة وتزول أيها الغريب. أهذا الغلام ابنك.؟

الحلبي: هو.. نعم.. هذا ما تبقى من ولدي.

دلامة: ما أجمله! يجب أن تعلّق له حرزاً يحميه من العيون.

(يتحسّس وجه الولد، فيفزع ، ويندسّ في حضن أبيه)

الحلبي: قيل لي إنك عظيم الغنى.

دلامة: لا غني إلا الله سبحانه وتعالى. والناس تحبّ المبالغات.

الحلبي: لم أسأل أحداً عن أغنياء البلد إلا ذكر اسمك.

دلامة: وفيمَ يهمّك هذا الأمر؟

الحلبي: قد تكون ضالتي أيها الكريم. تعبت، ولم أعد أتحمّل خوفي وجوعي.

دلامة: إذا كنت تطلب.

الحلبي: لا.. لا أطلب صدقة. لحقني من الخزي ما يكفي ، أريد أن أعقد معك تجارة.

دلامة: تجارة.! هل تخفي ما يُباع ويشترى؟

الحلبي: لم أنقذ من أهلي ورزقي إلا جارية، وهي أحبّ أولادي إلى قلبي.

دلامة: وهذا الغلام؟

الحلبي: استر علينا، سترك الله.. إنها الجارية. أخفيتها في ثياب غلام كي أحميها. ولكني لم أعد أستطيع. أضنانا القلق والجوع.

دلامة: إنها جارية.. ما أعجب هذه القصة!

الحلبي: استر علينا سترك الله.

دلامة: اطمئن.. اطمئن . هي جارية إذن! من حقك أن تخاف عليها.

الحلبي: لا أنام إلا نوم المطلوبين. وأرتعش إذا حدّقت فيها العيون والناس لا ترحم، ولا ترتاح إلا إذا نبشت ما بدا وما خفي. (يغصّ) وفوق هذا الجوع، والذلّ ، وأولاد الحرام.

دلامة: أعانك الله. ولكن أين التجارة التي ذكرتها؟

الحلبي: قلت في نفسي أيها الكريم. لعل بك حاجة إليها.

(تصوّت البنت أصواتاً غريبة، وهي تختفي في حضن أبيها)

الحلبي: منذ رأت ما حلّ بأمها وأخوتها انعقد لسانها. اهدئي يا ابنتي. هل تريدين أن تُبْكي أباك؟

دلامة: أوجعت قلبي أيها الغريب. قل لي بصراحة ماذا تطلب؟

الحلبي: أن تشتريها، وتسترها.

(يعلو صوت البنت، فيربت الأب على رأسها)

دلامة: هل تعرض عليّ شراءها؟

الحلبي: نعم.. أعرض عليك أن تشتري بضعة منّي كي أطمئن. كي يخفّ حملي.. ويَشبع كلانا.

دلامة: إذن .. تعالَ معي إلى الداخل. هذه صفقة لا تعقد بخفّة.

ينبغي أن نزن ونقلب.

(يختفي دلامة داخل المحل، ويتبعه الحلبي الذي يجرّ ابنته جرّاً.)

شعبان: (من خارج المسرح، وبعد اختفاء الجميع، يتناهى صوته بعيداً)

أين أنتِ يمّه، جوعان يمّه.

(يتلاشى الصوت والضوء..)

مؤرخ قديم: وفي شهر ربيع الثاني، في خامس عشره احتشد في الجامع الأموي خلق كثير من جماعات القرّاء والفقراء والبطالين. وكانوا يكبّرون ويهمّون بالخروج لكبس الخمارات، واحراق البيوت التي فيها بنات الخطأ. لكن القاضي محيي الدين بن العزّ ردّهم، ومنعهم من التشويش. وقد حصل كلام كثير، ثم تفرّق الخلق ولم يحدث شيء.

وفي عشرينه وصل السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى غزّو.

وفيه حصل برد شديد وزمتة للغاية.

والماء يجري في بردى على زيادة.

تفصيل (6)

(ديوان في قلعة دمشق – نائب القلعة عز الدين آزدار ومعاونه شهاب الدين الزردكاش)

شهاب الدين: أخبرت الكشّافة أن تيمور وصل إلى بعلبك.

آزدار: ننتظر خبراً من السلطان ، فتأتينا أخبار من تيمور.

شهاب الدين: أيمكن أن يتراجع السلطان بعد خروجه؟

آزدار: لا أدري.. لا أدري شيئاً. هل حصّنت السور عند الباب الصغير؟

شهاب الدين: رجال التاذلي يركبون المكاحل هذه الساعة. صارت المدينة حصينة كالقلعة.

آذدار: إذن دعنا نتفقّد الأسوار، ونرتّب المقاتلين.

شهاب الدين: ما زال ابن أبي الطيّب يلحّ على لقائك.

آزدار: ولم هذه اللجاجة؟ هذا الرجل يجب اللعب بذيله. ولا يحمل لنا إلا العداوة.

شهاب الدين: لا ضير لو منحه الأمير برهة من وقته.

آزدار: هل وعدته؟

شهاب الدين: لا.. ولكن أتمنى أن تسمع ما لديه.

آزدار: طيب.. دعه يدخل.

(يدخل محمد بن أبي الطيّب)

محمد : السلام على الأمير.

آزدار: قلْ ما لديك ، وأوجز.

محمد: لا بأس أيها الأمير. سأقول ما لدي، ولن أطيل، جئت أقدم لك الولاء ، وألتمس منك السلاح.

آزدار: أتطلب السلاح لك؟

محمد: لي ولرجالي من قرابتي.

آزدار: وهل يحقّ لمثلك أن يطلب السلاح؟

محمد: يوم سمعت مناديك..

آزدار: نعم.. نعم. سلّحت الناس، وأسلّحهم. ولكن ذلك لا يشملك.

محمد: ألست من البلد وناسها؟

آزدار: لا يسلّح المرء أعداءه.

محمد: سامح الله الأمير. أتساوينا بالأعداء؟ في الملمات ينسى الأهل ما يفرّق بينهم ولا يبقى إلا حنين الدم للدم.

آزدار: وأين كان حنين الدم للدم حين جاهرت بعداوتك للسلطان، وأيّدت متآمراً أشعل فتنة، وأراد أن يغتصب السلطة؟

محمد: هذا حقّ. كان لنا رأي، وكان لنا ولاء. ولكن تلك أيام سلفت.

آزدار: بل كانت خيانة أفسدت القلوب ، وهزت السلطة.

محمد: ربما أخطأنا في ولائنا، ولم نحسن تقدير المصلحة.

آزدار: ما زلت تراوغ وتقول ربما. لولا فضل السلطان لالتف حبل المشنقة على عنقك.

محمد: ومن يجحد فضل السلطان؟ ومن يجهل أن عفوه هو الذي فكّ مشنقتي! ولكن أيها الأمير، لماذا ننكأ الجراح، وننبش أسباب الخلاف، والخطر يدهمنا جميعاً؟

آزدار: لولا الشقاق والخلاف ما طمع فينا عدوّ.

محمد: وها أنا أرجو أن نطوي الماضي، وتصفو القلوب. إني أعلن ولائي، وأطلب شرف الدفاع عن بلدي.

آزدار: وجوابي هو أن تلزم بيتك ، وتترك هذا الأمر عنك.

محمد: ألزم بيتي. وكيف ألزم بيتي أيها الأمير؟ إنك تجردنا من المروءة، وتحكم علينا بالغربة. كيف سيكون شعورنا حين تقاتل الرجال، ونحن قعود في بيوتنا مع النساء والأطفال؟ كيف نتحمّل الخزي والمرارة والغربة؟ لا.. هذه مهانة لا تطاق.

آزدار: إنك تحصد ما زرعت.

محمد: هذه مدينتنا. فيها قبور الأجداد، وفيها الأهل والعمران، فمن أجدر منا بالدفاع عنها؟

آزدار: من يحرص على المدينة لا يورّطها في الثورات والفتن.

محمد: ليت الأمير ينسى.

آزدار: الخيانة لا تُنسى.

محمد: هذه المحنة تقتضي أن نجمع. لا أن نفرّق.

آزدار: هذه المحنة تقتضي رجالاً موثوقين لا تشوب ولاءهم شائبة.

محمد: أعطيتك كلمتي أيها الأمير.

آزدار: لن أعرض ظهري لتقلبات الأهواء والأفئدة.

محمد: أهذا قرارك الأخير؟

آزدار: نعم.. ولا فائدة من الجدل.

محمد: في الوقت الصعب.. وحين يعزّ الرجال، لا تنسَ أيّها الأمير أنك أبعدت رجالاً لا تنقصهم الحميّة ولا الشجاعة.

آزدار: لا اريد نجدة الخونة والمتآمرين.

محمد : والله إن رجالاً فيهم حمية ورأي خير لك من العبيد.

آزدار: لا تتجاوز حدك ، واخرج قبل أن أغضب.

محمد: لا بأس أيها الأمير.

(يتراجع منسحباً)

آزدار: الزموا بيوتكم واحذروا، فلن أكون رحيماً لو بدر منكم شغب.

محمد: سمعاً وطاعة أيها الأمير.

(يخرج .. يبدو آزدار مهتاجاً. يلتفت إلى شهاب الدين)

آزدار: وأنت ماذا تريد أن تقول؟

شهاب الدين: لا شيء.

آزدار: هل توقّعت أن ألبّي طلبه؟

شهاب الدين: لا أدري. أمامنا معركة صعبة.. ربما كان أفضل لو ألفنا قلوب الجميع وشجعنا مبادراتهم.

آزدار: هؤلاء أفسدتْ قلوبهم الدسائس ولا خير فيهم.. لقد نشأت وتربيت على الولاء والواجب. وخلال حياتي التي قاربت الآن على نهايتها، رأيت كثيراً، وتقلّب الحظ بي مراراً. ومع هذا ظلّت هاتان القيمتان كإيماني بديني لا تعدو عليهما قيمة أخرى.. ما الذي وصل بنا إلى هنا.. إنه جشع الأمراء، وتقلب ولائهم. ولولا هذا الوضع لبادرنا تيمور قبل أن يعبر الفرات بدلاً من انتظاره كالنساء في قلاعنا ومدننا. لا يا شهاب الدين! القلوب الفاسدة إذا وجدت عند العدو مصلحة تحولت علينا، ولا أستطيع أن أخاطر بتسليحهم والاعتماد عليهم.

(يدخل الشيخ التاذلي وهو يحمل صندوقاً معدنياً)

التاذلي: أبشر أيها الأمير.

آزدار: أهلاً بالشيخ.

التاذلي: جاء بريدي يخبر أن السلطان وعساكره وصلوا غزّة.

آزدار: إذن سيكونون بيننا خلال أيام. هل حُصّن السور قرب الباب الصغير؟

التاذلي: إن رجالي يركبون المكاحل هذه الساعة.

آزدار: سنقدم للسلطان مدينة كالحصن المنيع.

التاذلي: تعبنا ونلنا أيها الأمي.

آزدار: لا فضل لمن يؤدي واجبه.

التاذلي: ما أحلى تواضعك أيها الأمير! في هذا الزمن المشوش أداء الواجب مأثرة عظيمة. والان لدي هاجس شخصي أريدك أن تريحني منه. لا أحد يعلم كيف تدور الأحداث. لديّ امرأة وابنة، وفي هذا الصندوق وفر عمري كله، سأودع الصندوق لديك، واذا ما كتب الله لي الشهادة، فإني أرجو أن تصون امرأتي وابنتي كما تصون أهلك.

آزدار: هذه بسيطة. ولكن هل نعرف من يسبق الآخر يا شيخ؟

التاذلي: لم يتبدّ لي حبيب الله عبثاً. كان الضوء يومئ لي وهو يتناءى، وإذا قدّر الله سأتبع الإيماء، وأعبر الضفة، وألتقي سيّد الأنام.

آزدار: خير يا شيخ.. إن شاء الله خير.. خذ الصندوق يا شهاب الدين.

(يتلاشى الضوء)

تفصيل (7)

(في بيت دلامة التاجر. الضوء الشاحب. دلامة يختم صلاته وينهض. في الغرفة منقلٌ مليء بالجمر. حين ينهض دلامة تتراجع ابنة الحلبي على عجيزتها ، وعلى وجهها علامات الخوف والاضطراب)

دلامة: وهي ينفعك الزحف وهذا الصدّ. تعالي (تتراجع الفتاة أكثر) إن الطقس بارد فاقتربي من النار.. تعالي يا ريحانة. إنه ليس اسمك. ماذا افعل؟ نسيت أن أسأله عن اسمك.. شغلتنا المقايضة، فلم يخطر لي أن أسأل أباك عن اسمك. لكن ماذا يهمّ! سمّيتك ريحانة، وإنه اسم جميل يناسبك. اسم على مسمى.. (كلما اقترب منها تراجعت وازدادت تجمّعاً على نفسها) اسمعي يا ريحانة .. لقد صبرت عليك أياماً عدة.. قولي ألم أصبر عليك؟ وأنتِ لي.. أنت ملكي. لقد دفعت ثماني ذهبيات رنانة. وضعتها الواحدة بعد الأخرى في يد أبيك. لم أحظَ عليك بالرخيص. وأبوك لم يفرط بك بالرخيص. كلانا عرف كيف يقدّرك، وكلانا عرف كيف يسعِّرك. لا تستوحشي منّي.. سأدلِّلك ، وسأرضيك (يحضنها، فتُصدر أصواتاً غريبة ومروّعة. يفلتها بغضب) لا.. إنك تستغلين صبري ولطفي.. هل اشتريتك كي أتفرّج عليك، وأسمع صراخك الأبله؟! لا أريد أن أكون قاسياً يا ريحانة. ولكن سايريني قليلاً.. في النهاية ما من بنت تبقى في بيت أبيها. إذا أبديت لطفاً فسأعوّض عليك الحزن والغربة. (يتحسّس فخيها) أتعلمين حين ألمسك أشعر أن قواي تتجدد. أبرمت صفقة رابحة، ولن أدعك تفسدينها. إن الأرض باردة. تعالي معي إلى السرير (يحاول أن يحملها فتولول تلك الولولة الخرساء والمخيفة) اخرسي.. يقشعر بدني من هذا العواء.. أنت أردتِ ذلك. لم ينفع الصبر، ولم تنفع الكلمة الحلوة، والذهب الذي دفعته لم يَغلّ عليّ شيئاً حتى الآن. أجل.. أريد أرباحي.. وهذه الليلة بالذات. (يتناول من درج في خزانة الحائط حبلاً ويأتي إليها. بعد تصويت ومقاومة شديدة يفلح في ربط يديها وتقييد ساقيها على قائمتي السرير. بعد أن ينجح في تقييدها، يفرك يديه وهو يلهث ، تبدو الفتاة مغلوبة على أمرها، عيناها جاحظتان وفمها يتقلّص بعنف وكأنها تريد أن تقهر بكمها وتتكلم)

دلامة: (تنفر الشهوة من عينيه، وهو يفرك يديه) الآن سأجني أرباحي، وأقطف ثمارك الشهية . التفاح.. والرمان.. وحلاوة الشهد.

الفتاة: ات .. ات .. ار .. ار .. تات (وفي صيحة قوية) ترري .. ت .. ري (تتضح الحروف أكثر فأكثر، ثم تشكل هذه الكلمة التي ترددها بصوت أقوى فأقوى)

تترى .. تترى .. تترى.

دلامة: (غارقاً في شهوته) سبحان من أنطقك!

الفتاة: تترى.. تترى.

(يتلاشى الضوء)

مؤرخ قديم: وفي عشرينه ربيع الثاني توجّه الفقراء إلى زقاق الدبّاغة، وكبسوا مكاناً تُعمل فيه الخمور فأراقوها وأمسكوا من يعملها.
وفي خمس وعشرينه وصل أهل بعلبك والزبداني وأخبروا بوصول تيمور إلى بعلبك. وجاء نائب حمص هارباً إلى دمشق فجفل الناس وساء حالهم.
ودخل جمادى الأولى ودمشق مغطّاة بالثلج. بدأ هطول الثلج بعد منتصف الليل بقليل واستمر حتى الضحى.
وفي الثاني منه وصلت طلائع جيش السلطان. وفي السادس منه كان دخول السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى دمشق. وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته. وكان دخول الجيش مهيباً لولا كثرة الوحول التي لطّخت الفرسان والمشاة.
وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه. وبدأ يقوى جريان الماء في بردى.

تفصيل (8)

(غرفة الضيوف في بيت الشيخ برهان الدين التاذلي. في الغرفة ابن خلدون وتلميذه شرف الدين)

ابن خلدون: ما حالك ؟ هل تبكي؟
شرف الدين: أشعر أني مبلبل الفؤاد. إنها المرة الأولى التي أرى فيها الثلج. سبحان الله ما أعجب منظره! ثم دخول العسكر . وحماسة الناس، وكرم الشيخ التاذلي. كل ذلك يبلبل فؤادي. لا تظن أني متعب بل إني متلهف كي نبدأ العمل.
ابن خلدون: هذا البلبال طبيعي في سنّك وحداثتك. ولكن حين تريد أن تسجّل الوقائع ينبغي أن تسيطر على الانفعالات والعواطف، أو أن تلغيها تماماً.
شرف الدين: وهل يستطيع المرء أن يفعل؟
ابن خلدون: ينبغي أن يستطيع ، لكيلا يجرفه الهوى، ويزوِّر الوقائع. والآن، دعنا ، نعمل. قليلاً.
(يهيئ شرف الدين القرطاس والدواة والريشة، ويتربّع على الأرض أمام منضدة صغيرة، ويتهيأ للكتابة)
ابن خلدون: (يملي عليه) لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم
شرف الدين: الأمير تمر يا سيدي؟
ابن خلدون: نعم الأمير تمر.
شرف الدين: إنك تجلّه يا سيدي. ألا تصفه بالكافر أو اللعين؟

ابن خلدون: (بحدّة) لا.. لن أصفه بالكافر أو اللعين. إننا لا نكتب إنشاء وهجاء، بل نكتب تاريخاً يا شرف، وكتابة التاريخ كما قلت لك منذ لحظة لا تستقيم مع الأهواء والتحيّزات. والتاريخ نفسه لا يبالي بالشتائم والمفردات الأخلاقية الشائعة.

شرف الدين: عفوك يا سيدي.. هذا درس لن أنساه.

ابن خلدون: لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وضرب سيواس ورجع إلى الشام، جمع السلطان فرج عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة. (طرق على الباب . يهبُّ شرف الدين لكي يفتح الباب)

شرف الدين: من؟

سعاد: جئت كي أهيىء لسيدي تغطيسة الماء الساخن.

(يفتح شرف الدين الباب، فتدخل سعاد وهي ابنة التاذلي الوحيدة. ترافقها خادمة تحمل طشتاً وابريقاً ومناشف)

ابن خلدون: يا ابنتي لا أحتاج شيئاً.

سعاد: لا شيء يداوي مشاق السفر، والبرد مثل تغطيسة الماء الساخن.

ابن خلدون: غمرتمونا بفضل لا يوفّى.

سعادة: نزولك عندنا هو الشرف والفضل الذي لا يوفّى. هلا خلعت نعليك يا سيدي؟

ابن خلدون: إذا كان لا بدّ.. دعي الطشت والماء، ونحن نتدبر الأمر.

سعاد: أواني أبي أن أدلك قدميك بيدي. مثلك يا سيدي لا يخدمه الخدم، بل رب البيت.

ابن خلدون: قدّرني الله على مجازاة المعروف بمثله.

سعاد: أرخِ قدميك يا سيدي.

(شرف الدين الذي يبدو مرتبكاً منذ دخول سعادة، يحاول أن يخرج من الغرفة.)

سعاد: لا تخرج أيها الشاب.

ابن خلدون: إنه تلميذي ورفيقي شرف الدين.

سعاد: لا تخرج يا شرف الدين. لقد ربّاني أبي، وأحسن تربيتي. الحشمة عندنا أصلب من أن يخدشها النظر أو الحديث.

ابن خلدون: لله درك يا ابنتي! والله إنك لتليقين بأبيك.

سعاد: صبّي الماء يا طيرة. هل هو شديد السخونة؟

ابن خلدون: لا.. إنه مناسب.

سعاد: تتمنّى أمي يا سيدي لو تسعفها على أبي. إنه يكلّف نفسه في هذه المحنة فوق ما يحتمل بدنه أو سنّه. ها أنت ترى. لا يبيت ليلة قبل أن يطلع إلى الأسوار، ويتفقد المقاتلين، أما في النهار فننا لا نكاد نراه. إنه يجور على نفسه وكأنه شاب في العشرين.

ابن خلدون: والله لاحظت أنه لا يترفق بنفسه.

سعاد: منذ بدأ هذا الأمر وهو فاتر المزاج. لا يهنأ بطعام أو رقاد. إياك أن تظن أننا نريد أن نقعده عن الجهاد. لا .. الجهاد حق وواجب. ما نأمله هو أن تخفّف من اندفاعه بما يحمي صحّته.

ابن خلدون: سأحاول بإذن الله.

سعاد: ألن تكفينا العساكر العثمانية شر تيمور؟

ابن خلدون: هذا ما نرجوه جميعاً.

سعاد: كم كانت الناس في انتظار قدوم السلطان! الأخبار تتضارب، والأراجيف تنتشر، والخلق في بلبلة عظيمة. لولا رجال مثل أبي ونائب القلعة، لخلت دمشق من أهلها.

ابن خلدون: أخبرني أبوك طرفاً مما قاسته المدينة.

سعاد: كاد اليأس أن يهلك الناس. ولهذا انفجرت المشاعر مجنونة يوم دخول السلطان. ألم يتردد طويلاً قبل أن يعزم على المجيء؟

ابن خلدون: للسلاطين ظروف ومواقيت هم أدرى بها منّا.

سعاد: نسأل الله أن يحمينا ، وأن يكشف عنّا هذه الغمّة. ما كان يليق أن نشغلك بهمومنا، ولكن أمي قلقة.

ابن خلدون: طمئنيها. سأبذل معه غاية جهدي.

سعاد: بارك الله فيك.. هل تحتاج شيئاً آخر يا سيدي؟

ابن خلدون: قوّاك الله وعافاك يا ابنتي.

(تخرج سعاد ومعها الخادمة)

ابن خلدون: هذه الفتاة مكرمة لأبيها. لا يضاهي جميل قولها إلا رشاقة يديها. أراحتني هذه التغطيسة كأنها البلسم.

شرف الدين: أدام الله عليك الراحة والعافية.

ابن خلدون: هل انت محموم؟

شرف الدين: (محرجاً من لمسات ابن خلدون) لا.. لا شيء . ما سمعته عن حمية أبيها زاد هياجي . في مثل سنّه يتقلّد عدّة القتال، ويقف على الأسوار!

ابن خلدون: والله إنه منغمس في أمر تيمور انغماس رجل فيه لوثة.

شرف الدين: وجود أمثاله يؤكد الثقة بالنصر.

ابن خلدون: النصر!

شرف الدين: أتتنبّأ لنا بالخسران يا سيدي؟

ابن خلدون: لا أتنبأ بشيء . ما جئنا لنتنبّأ، بل لنعاين ونسجّل.. أين وصلنا؟

شرف الدين: وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة.

ابن خلدون: فاستدعاني الحاجب، وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم عليّ بلين القول. وجزيل الإنعام، فأصغيت ، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة 803 هجرية.

(يتلاشى الضوء)

تفصيل (9)

(الوقت ليل.. في مكان ما على الأسوار.. أحمد ومروان)

أحمد: أين هم؟ لماذا يختبئون ! إن دمي يغلي. عاهدت نفسي أن أذبح أول تتري ألتقيه، وأن أسلخ جلده كما تسلخ الدابّة.. هل أنت بردان؟ لماذا لا تتكلم؟ من كان يصدّق أنّك ستتقن استعمال الحربة بهذه السرعة.
(يتناول من جيب داخلي زجاجة، ويتناول منها جرعة، ثم يمدّها إلى مروان) طاوعني وخذ جرعة. إنها أفضل ما يدواي البرد.

مروان: لا أريد.. هذا حرام وطيش.

أحمد: ما أشدّ تزمّتك؟! كيف تعيش معك أختي؟! إن رخصة الجندي واسعة، وكل شيء مباح إلا الجُبن والخيانة.. وأنا مقاتل. وسأصبح ذات يوم مقدّماً، أقود الكتائب من معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر. تخيّل بهجة الفاتح حين يدخل مدينة مستسلمة وراكعة. ومصيرها تحدّده كلمة واحدة منك. هذا السيف هو أنبل ما صنعه الإنسان. ومهنته هي أرفع المهن. حين تدور المعركة سيبرز معدني، وسأجعل نجمي يسطع. وأنت أيضاً يمكن أن يكون لك نصيب من المجد. لا أخفي عنك.. لقد أدهشني. لم أتخيل أبداً، أن يد الحرير الرخوة والناعمة يمكن أن تطوّع الحربة بهذه البراعة! أنت ستكون لك حصة من المجد.

مروان: خذ حصتي ، فأنا لا أبحث عن المجد. وأعتقد أني لن أبقى على الأسوار هذه الليلة.

أحمد: هل تريد أن تهرب إلى بيتك؟ هل تترك الرجال لتختبئ في حضن زوجتك؟

مروان: اسمع. لا تجعلنا نتحامق. اليوم روحي ضيّقة ولا أتحمّل لسانك الفلتان، وتشدّقك بالفارغ والمليان.

أحمد: ماذا تقول! أأنت تقول لي ذلك؟ لولا أنك.. لجعلتك غربالاً (يحتسي جرعة من الزجاجة) ماذا دهاك؟ لماذا اللف والدوران؟ قلْ إنك بردان وخائف. وسنتدبّر الأمر. أما أن تهينني..

مروان: اخز الشيطان يا أحمد.. لم أقصد إهانتك، ولكن روحي ضيّقة. لم أعد أعرف موقعي. لم أعد أعرف كيف تدور الأحوال، أو ماذا ينبغي أن أفعل!

(يدخل الشيخ التاذلي ومعه مقاتل شاب)

التاذلي: حيا الله الشباب.

أحمد: (باندفاع وارتباك) حيّاكم الله يا شيخي.

التاذلي: كيف الحال عندكم؟ ألا يرهقكم البرد؟

احمد: من يبالي بالبرد؟! إننا على أتم حال يا شيخ ، ولكن لماذا لا يظهرون؟ لماذا لا يخرجون من مخابئهم؟

التاذلي: لا تكن عجولاً.. سيظهرون، وستكون لنا معهم مطاولة رهيبة.

مروان: هناك شيء يثقل على صدري يا سيدي.

التاذلي: قل ما لديك.

مروان: إني حائر يا سيدي.. لقد بكينا فرحاً يوم وصلت العساكر السلطانية، وحسبنا أننا صرنا في أمان، ولكن رغم ترحيبنا وكرمنا.. أقسم لك يا سيدي إن الجميع في السوق يعاملونهم كالضيوف، ويراعونهم كما تُراعى العين الرمداء. إن أحداً لا يريد أن يربح منهم، بل ولا يبخل عليهم بهدية. ولكنهم يتصرفون مع المدينة وكأنها مباحة لهم، يستطيعون أن يأخذوا ، ويغتصبوا ما يشاؤون. إني حائك على قدِّ حالي، واليوم دخل عليّ

ثلاثة عساكر ، لو ترى كيف رحبت بهم، وأردت أن أعانقهم، إنهم عساكرنا التي جاءت لتحمينا ، فكيف لا أرحب بهم؟ سألوني عن أثواب الحرير وما لدي ، فأسرعت أفرش أمامهم شيئاً مما لدي، ويشهد الله أني لم أكن أنوي أن أضيف على سعر الكلفة أي ربح، فهل تدري ماذا فعلوا يا شيخ؟ حملوا القماش وهمّوا بالخروج، سألتهم بكل لطف عن الثمن. فسلّوا سيوفهم في وجهي، وخرجوا، وهم يتضاحكون. ومثل هذا تكرر مع سواي، وفي كل الأسواق. قل لي يا شيخ.. هل جاءوا ليحمونا أم لينهبونا!

التاذلي: في كل عسكر يوجد بعض الأوباش. لا تدع خسارة صغيرة تضعف روحك. نحن أمام معركة مصيرية ولا وقت للحسابات الصغيرة.

أحمد: (يلكز مروان) ما نحن فيه أهم من قطعة قماش يا مروان.

مروان: سأختنق إذا لم أتكلم. رموا علينا ضريبة لطعامهم وعلف لدوابهم ، ولم نتذمر. وسنسامح يا شيخ بالتجاوزات، وما يأخذونه عنوة. ولكن مقابل ذلك ألا ينبغي أن يعفونا من مشقة القتال وحماية الأسوار!

التاذلي: (محتداً) أتريد أن يقاتلوا عنّا، ونحن جلوس في بيوتنا كالنسوان؟! لا.. نحن أمام خطر جسيم، ولن نفلح إلا إذا قاتلنا جميعاً بقلب واحد، وسيف واحد.. لا.. ليس هذا وقت الشك والوسواس. إن المعركة ستبدأ بين ساعة وأخرى. هل تدركون أيها الشباب .. بين ساعة وأخرى سيتقرر مصير أهلنا ومدينتنا ومستقبل أيامنا. قولوا لي.. كيف نفلح إذا قاتلنا، وكل يحمل في نفسه ضغينة أو وسواساً. لا.. ليس هذا وقت الحزازات والحسابات الصغيرة، اليوم ينبغي أن نعلو على الصغائر، وأن نؤجّج في قلوبنا العزم والجسارة.

أحمد: لا يا سيّدي.. لا تخشَ شيئاً. سنكون كما تشاء في العزم والجسارة. ومروان لا يعني شيئاً.. كانت فشّة خلق لا أكثر.

التاذلي: هذا ما أتوقعه منكم. والليلة بالذات ينبغي أن تكونوا في غاية الحذر. يخامرني إحساس بأن تيمور قد يباغت الأسوار كي يربك عساكرنا، ويلتفّ عليها. كونوا يقظين هذه الليلة، ولا تنسوا أن الحبيب المصطفى يساهركم. ويحنو عليكم. قولوا .. من يستطيع أن يغمض عينيه والحبيب المصطفى يساهره؟

أحمد: باطل يا سيدي. لن يرفّ لنا جفن ، ولن تغمض لنا عين.

التاذلي: بارك الله فيكم أيها الشباب.

(يتركهم التاذلي ويمضي في جولته على الأسوار)

أحمد: أكان ضرورياً أن تضعنا في هذا الموقف؟! أقمت الدنيا وأقعدتها من أجل خرقة من القماش.

مروان: أتسميها خرقة؟ ولكن ماذا تعرف عن عملي؟ إني أضع روحي في كل منديل، أو قطعة أنسجها. قل لي لماذا تعلمت ضرب الرمح على كره منّي! أو لماذا أقف الآن على هذه الأسوار؟! ألم أفعل ذلك لحماية عملي ورزقي!

أحمد: (وهو يتناول جرعة من الزجاج) أهذا كل ما تفكر فيه، نسيجك ومالك. اللعنة على المال وعلى الرزق. إننا هنا من أجل الكرامة. من أجل العزّة. إننا هنا يا مروان من أجل البطولة. آه .. حين يكون المرء بطلاً، يتهاوى أمامه الأعداء، وتتساقط المدن (يتركه مروان ويمشي) أين تمضي؟ توقّف.. جاوبني.. ماذا دهاك؟

مروان: إنني ذاهب إلى البيت.

أحمد: إلى البيت؟ وبعد كل ما قاله شيخنا التاذلي! إنك تجعل نفسك مضغة للأفواه.

مروان: لا أبالي ولم أعد أتحمّل.

أحمد: جبان.

مروان: قل ما تشاء.

أحمد : إنك عار على العائلة. إنك عار علينا وعلى أختي.
مروان: العائلة صغيرة ويكفيها مجد واحد.
أحمد: إنك تقطع ما بيننا إذا ذهبت.
مروان: قد تغيّر رأيك حين تصحو.
أحمد: (شديد الغضب) أتحسبني سكران؟!
مروان: (وهو يغادر) لست أدري.
أحمد: (وهو يكرع من الزجاجة كرعات متلاحقة) جبان.. أحمق.. حرمة.. نعم أنت كل هذا، وسيكون بيننا حساب.

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: وفي العاشر من جمادى الأولى، حصلت وقعو بين القوات السلطانية ومعها عرب بني الغزاوي، وبين قوات تيمور لنك، واستطاعت العساكر السلطانية أن تهزم جند تيمور. وقد أسروا منهم ونهبوا وهرب الأمراء حاملين جراحهم.
وفي ثاني عشره، نودي بدمشق بأن من كان له على الأجناد والمستخبرين دين فلا يطالب به. وذهب للناس في ذلك مال كثير: ووقف حالهم زيادة على ما هم فيه.
وفي خامس عشره، اشتد البرد والزمتة وهطل ثلج خفيف مع مطر، وهذه ثاني مرّة تثلج فيها خلال جمادى الأولى.
والماء يعلو في بردى ويجري على قوّة.

تفصيل (10)

(بيت جمال الدين الشرائجي. ياسمين زوجة جمال الدين وابراهيم الملكاوي. الضوء شاحب)

ياسمين: لا أصدق عيني. كيف تذكرتنا بعد هذا الغياب الطويل!
إبراهيم: علمت أمراً يجب أن أخبرك به.
ياسمين: إذن جئت رسولاً لا زائراً.

إبراهيم: (متملصاً وحرجاً) علمت أن الشيخ جمال الدين أرسل من سجنه تظلّماً إلى السلطان، وأن العلماء أوغروا صدره، فرد التظلم ، وأمر بتشديد العقوبة.
ياسمين: ولماذا تبدي كل هذا الحزن؟ أليس هذا ما أراده لنفسه؟ ما أقساك يا ابراهيم الملكاوي!. مرّ شهر وأنا أنتظر زيارة أو حتى إشارة. ماذا حدث؟ ما سبب هذا الجفاء، ولماذا تريد تعذيبي؟
إبراهيم: بل أريد تعذيب نفسي لا تعذيبك يا أم واصل! يشق عليّ الحديث في هذا الموضوع.
ياسمين: هل كان الهوى لعباً. وهل كان البوح والتودد كذباً؟
ابراهيم: لا.. لم ألعب ولم أكذب. ولكني كرهت نفسي. ومازلت أكرهها. أعماني الهوى فجعلني أخون الصديق والمعلم والعشرة . أتعلمين.. أنا الذي وشى بالشيخ جمال الدين، وأنا الذي حرّض ابن النابلسي عليه. حين رأيته ذلك الصباح في صحن الجامع الأموي، رافع الرأس لا يتراجع، ولا يلين، استصغرت شأني وكرهت نفسي، وقرّرت أن أخفي وجهي عن الناس.
ياسمين: أأنت من وشى به؟
ابراهيم: نعم.. أنا الواشي الجبان. لقد فقدت احترامي لنفسي. وكنت أعلم أنك لن تقبلي صغاري، ولن تستطيعي الامتناع عن احتقاري حين تعلمين إلى أي درك هويت.
ياسمين: أحقاً كان الهوى دافعك!
ابراهيم: نعم. هوى جامح. أعمى بصيرتي وأضلّ روحي. كانت زلّة فاحشة . وددت لو أخرج قلبي من صدري وأذبحه. قرّرت أن أخنق هواي. وأدفنه ولم أكن أجرؤ على الاقتراب منك، كنت أخشى نفسي، وكنت أخشى احتقارك أيضاً.
ياسمين: ولم الاحتقار؟! وكيف أستطيع أن أحتقر شريكي في الوشاية!
إبراهيم: أأنت أيضاً؟ لا.. لا تقولي إنك..
ياسمين: لا.. لم أفعل شيئاً ولكن.. ألم يكن هوانا هو الذي فعل؟! ألم أرغب أن يغيب ، وأن نكون معاً بلا حواجز؟! إني شريكتك يا ابراهيم، ولا أستطيع أن أحتقرك أبداً. من يحب لا يعرف الاحتقار أبداً.
ابراهيم: هذا كرم عظيم يا أم واصل. ولكن يبقى أمري مع نفسي، وسيمر وقت طويل قبل أن أتطهّر من خيانتي، الآن.. وأنا أقف هنا في بيته أشعر بالخزي. أشعر أنه كبير، وأنني حشرة صغيرة في طين الغدر والأهواء.
ياسمين: ولم المداورة؟ لماذا لا تقول بصراحة، ماعدت أحبك؟
ابراهيم: ليتني استطعت أن أدفن هذا الحب في صدري! وأقول لك إني أتعذب أكثر مما تظنين. لن أسترد احترامي لنفسي إلا إذا قهرت هذا الهوى، وغسلت تلك الدناءة. كم مرة فكرت أن أثير فضيحة في الجامع، لكي يرسلوني إلى السجن مثله، فأعترف له وأطلب غفرانه.
ياسمين: إني لا أفهم.. كل هذه الوساوس من أجل زلّة صغيرة يرتكبها أي عاشق! إننا لم نرتكتب جريمة. وكان العلماء سيكشفون أمره عاجلاً أم آجلاً. أنت تعرف أنه لم يكن متحفظّاً أو حريصاً في أقواله وافكاره. كان يبدو وكأنه يريد المعركة ويستعجلها. إنك تؤذي نفسك بلا مبرر. ليتك فكرت في أمري كما فكرت فيه! لم يخطر لك أن تسأل عن حالي، وما يجري لي خلال هجرك وبعدك.
ابراهيم: ألا تريدين أن تفهميني! لقد تحطم شيء في داخلي. أشعر أني ملوّث. أني صغير. وأفضل ألف مرة أن يتحول حبّي إلى جرح متقيّح في صدري على أن استمرئ ضعتي واحتقاري لنفسي.

ياسمين: إني بحاجة إليك.. خلال شهر وأنا أقلب المشاريع في رأسي. تخيلت أني أحصل على الطلاق ، وتخيلت أني أُزفّ لك.

ابراهيم: أرجوكِ.. أرجوكِ..

ياسمين: ألم يكن هذا ما نحلم به؟! ألم يكن هذا ما يطوف في خيالنا، ونحن نتبادل النظرات واللواعج والكلمات المخطوفة!

ابراهيم: رؤيته ذلك الصباح حطمت كياني. إني لا أستحق ما كان له. إني لا أستطيع.

ياسمين: لم أكن أحبه، أبي أجبرني. وهو لم يكن يبالي بي. أنت لا تأخذ ما يملكه.

ابراهيم: مهما قلت فأنا لا أستطيع. إنه هنا.. إنه بيننا الآن، وسيظل بيننا كلما نظرت إليك، كلما اقتربت منك، كلما لمستك.. سأجده كالشبح بيننا.

ياسمين: ولكن هل هو سحر؟ هل هو عفريت؟ إنك تتصرف مثل طف..ل. إني بحاجة إليك يا ابراهيم.

ابراهيم: كل ما لدي هو لك. سأكون خادماً لك في كل ما تطلبين ولكن.. لن يكون شيء بيننا، قبل أن أتطهر ، وأسترد احترامي لنفسي.

ياسمين: أهذه خاتمة الحكاية؟

ابراهيم: لو تعلمين كم أنزف!

ياسمين: وأنا.. تظن أني لا أنزف؟

ابراهيم: أقول لك الحق، أقول لك كلمة من القلب قبل أن أنصرف.. لا يستحق رجل مثلي أن تنزفي عليه. نحن الآن في محنة، ولو احتجت أي شيء. فإياك أن تترددي في طلبي.

ياسمين: وهل بقيت لي حاجة؟! أتستعجل الذهاب؟! إذهب إذن..

(يخرج ابراهيم مرتبكاً تتداعى ياسمين على الأرض والدموع تتساقط من عينيها ، تتلاشى الاضاءة).

مؤرخ قديم: وفي ثماني عشره من جمادى الأولى جاءت طلائع تيمور لنك من تحت الثلج، وكانوا نحو ألف فارس فبرزت إليهم طلائع العساكر العثمانية نحواً من مائة فارس. فأوقعوا مع عسكر تيمور لنك واقعة قوية، فانكسرت طلائع تيمور وولّوا مدبرين.

وفي تاسع عشره، حصلت وقعة كبيرة بين العسكرين واندحر عسكر السلطان حتى قبّة يلبغا. لكن السلطان ومماليكه ثبتوا، وكسروهم، وظلّوا يطاردونهم حتى حال الليل بين المقاتلين. وقُتِل في ذلك اليوم خلائق من العوام والفرسان والأرض موحلة من الثلوج والأمطار.

تفصيل (11)

(يتردد صوته في الظلمة عبر شوارع المدينة)

شعبان: بردان يمه.. جوعان يمّه .. هاتي حضنك .. هاتي صدرك يمّه .. دفِّيني يمّه .. اسقيني يمّه .. بردان .. جوعان .. يمّه..

(قاعة في القلعة، السلطان فرج بن برقوق، حاجب السلطان. آزدار. الشيخ التاذلي. ابن خلدون)

الحاجب: دعوناكم وأنتم صفوة الخاصة، كي نطلعكم على امر خطير.

التاذلي: (بتهور) الله أكبر.. جاء نصر الله والفتح. (ينظر إليه الحاجب بقسوة ، فيطأطئ التاذلي رأسه، ويحسّ بالخجل).

الحاجب: ما سأقوله سرّ خطير . أطبقوا صدوركم عليه. ومن أذاعه فرّط في حق سلطانه.

آزدار: معاذ الله..

التاذلي: كيف نفرّط بسرّ سلطاني!

ابن خلدون: السرّ في بئر إن شاء الله.

الحاجب: قرّرنا أن نرحل الليلة إلى مصر.

(يتبادل الجميع نظرات ذاهلة)

آزدار: والحرب!

التاذلي: يرحل السلطان.. كأني لم أفهم!

الحاجب: جاءتنا أخبار مقلقة، تستدعي رحيلنا بلا إبطاء.

التاذلي: وهل هناك خبر أشد قلقاً من حربنا مع هذا الكافر؟

الحاجب: نعم.. أن يغتصب العرش طامع.

السلطان: (بلهجة صبيانية) اذبحوا الجركسي. واحفظوا لي عرشي.

الحاجب: في الجو فتنة. تسحب أمراء تحت ستر الليل، وعادوا إلى مصر كي يولوا لاشين الجركسي.

التاذلي: ما أهمية هذه الفتنة الصغيرة أمام الطامة التي تهدد الأمة بأسرها؟ أنترك الخطر الجسيم لنتدارك الخطر الهزيل؟

السلطان: (يهز كتف التاذلي بغضب) أتعتبر ضياع عرشي خطراً هزيلاً!

آزدار: (بلهجة مهدئة) إنما يقصد الشيخ أن خطر تيمور مؤكد، وهو أمامنا، أما خطر الجركسي فقد يكون دسيسة أو مبالغة.

الحاجب: وإن صح الخبر.. يتداعى البناء وراءنا ولا يبقى لنا شيء.

التاذلي: (يباعد المشخّص بينه وبين الدور) في تلك الليلة.. ليلة العشرين من جمادى الأولى، سنة 803 هجرية، لم يستشر السلطان وحاجبه حين قرر الفرار أحداً من الخاصة أو العامة، ولكن حين شاع الخبر، فار التاذلي غضباً، وتمنى أن يواجه السلطان، وأن يقول رأيه (يعود، المشخص إلى دوره) يا مولاي.. في هذا الوقت الذي تخوض فيه معركة الأمة، لن يجد المتآمر مؤيداً أو نصيراً.. حتى الحثالة من الرعاع ستمقت عمله، وتخيّب سعيه.

الحاجب: تعوّد الناس أن ينتصروا للغالب.

التاذلي: اليوم يختلف الأمر.. ما يهم الناس جميعاً هو حرب التتار، لا حرب العرش.

الحاجب: لا نقلّل من خطر التتار، لكن كيف نخوض الحرب إذا تداعى البناء وراءنا.

التاذلي: يا مولاي.. البناء كله هنا. في هذه الرقعة التي تفصل بينا وبين جحافل العدو، سيتقرر مصير العرش والسلطنة والأمة.

الحاجب: إذا نجح الجركسي ، فلن تكون الحرب هنا.. بل هناك في قلعة القاهرة.

التاذلي: إذا واجهنا هذه المحنة، وكسفنا شمس هذا اللعين، فإن الأمة بمصرها وشامها ستلعن المتآمرين، وترفع للسلطان العرش الذي يليق بالظافرين.. عرش مسبوك من الحب والولاء.

السلطان: لا أستطيع الجلوس على الحب والولاء. أريد عرشي.

الحاجب: ما فائدة أ، ندحر تيمور إذا خسرنا المُلك؟

التاذلي: وما فائدة أن تربح المُلك إذا ضاعت المملكة!

الحاجب: المملكة يمكن أن تُستَرد، أما المُلك فهيهات أن يسترده من يخسره.. وعلى كلٍّ ، الوقت يستحثنا، ولم نجتمع بكم للجدل والمماحكة.

التاذلي: مرة، حاصر العدو أحد السلاطين في قلعته، فنصحه قاضيه بالفرار، فأجابه السلطان "ليس هذا برأي مصيب، أنجو أنا، وأترك رعيتي ليوم عصيب! ونحن.. أتتركنا يا مولاي أكلة لتيمور! ما شرط السلطان إن لم يكن حماية العباد والبلاد!

الحاجب: (بدأ يحتد ويغضب) شرط السلطان هو أن يوطّد سلطانه. عمله يا ابن خلدون لماذا يحارب السلاطين ؟ ولماذا يسالمون؟ لماذا يقطعون ولماذا يصلون؟

ابن خلدون: فصاحة مولاي أبلغ من تعثّر عبارتي.

التاذلي: (صائحاً) أتسمّي الخذلان فصاحة يا ابن خلدون.!

ابن خلدون: السلطان أدرى منّا بما هو واجب وصواب.

التاذلي: إن سلطاناً لا يحمي بلاده وعباده يفقد شرعيّته.

الحاجب: أتخوض في شرعية السلطان؟! والله لو كان الوقت غير هذا الوقت لوسطتك بسيفي. ومن أنت أيها العجوز المخرّف حتى تقرر شرعية السلاطين؟

التاذلي: لو أن هذا السلطان يتمتع بالشرعية لما أصابكم الهلع، لأن طامعاً خسيساً تآمر عليه. لو أن هذا السلطان يتمتع بالشرعية لما ترك بلاده نهباً للعدو، وفرّ في الليل شوقاً إلى قصره وكرسيه. أما من أنا!.. فإني مجرد واحدٍ من علماء هذه الأمة، نذرت نفسي للشهادة ولا أبالي أن تأتيني الشهادة على يد سلطان جائر، خائر، أو على يد عدو غاصب كافر. إني مجرد عالم وإني أخلعك أيها السلطان.

الحاجب: أيها النائب.. خذه ووسّطه. هذه المماحكة ضيعت لنا وقتاً ثميناً. أفضينا لكم بما لدينا، فاحفظوا السر وتدبروا الأمر بعدنا. (يخرج السلطان والحاجب، يلحق بهما ابن خلدون محاولاً الكلام مع الحاجب)

التاذلي: (إلى آزدار) أتوسطني أيها الأمير، أم تترك التتار يفعلون؟

آزدار: والآن.. كيف نواجه هذه المحنة؟

التاذلي: كما كنا نفعل قبل مجيء السلطان، وإذا لم تشأ أن تنفّذ الأمر السلطاني، فسأذهب إلى موقعي على الأسوار.

آزدار: إذهب يا شيخ إذهب.

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: فلما كانت آخر ليلة الجمعة، حادي عشر جمادى الأولى، ركب الأمراء ، وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج في فرقة من الخيالة، وساروا به من على عقبة دمر يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع.
وأما بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم، لما علموا بخروج السلطان من دمشق، خرجوا إثره في طوائف يريدون اللحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم التتار وسلبوهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.
وكان أهل دمشق في الليل والنهار ملازمين الإقامة على الأسوار. وفي تلك الليلة صعد الناس إلى مكان عال، وإذا بأماكن مخيم السلطان قد خلت من النار، ولم يعد يعرف أحد ما الخبر، وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق في قبة يلبغا نافخ نار، وقال الناس: السلطان هرب، فانقصم ظهر الناس وتفاقمت الهموم، وتخبطت الأوامر والأمور.

تفصيل (12)

(على الأسوار.. حركة مضطربة، شباب يروحون ويجيئون، استعدادات قتالية. بعد قليل يظهر الشيخ التاذلي ويحتشد حوله جمع من الناس نرى بينهم أحمد ومروان، يخطب التاذلي فيهم)

التاذلي: أيها الناس. أنتم اليوم بلا سلطان . هرب السلطان، وتركنا نواجه وحدنا هذا الكافر الجبار تيمور لنك، وأعرف أن مجيئه وفراره على هذا النحو قد بلبل الخواطر وفتّ عزائم الرجال. وأقول لكم الحق.. لو كنا غير ما نحن عليه لكان لنا سلطان جدير بالسلطنة. سلطان يعرف كيف يقود الأمة في شدتها، وكيف يصون أرضها وناسها، وليس الظرف مناسباً كي أستفيض في شرح الأسباب التي أدت بنا إلى هذا المآل، ولكني أريد أن أخلص ذمتي، وأن أعترف لكم بما اقترفته نفسي من الهوان، وما تتحمله من فساد الأحوال. في زمن ليس ببعيد كان العلماء والفقهاء في مقدمة أهل الحل والعقد، في كل ما يتوالى على الأمة من عوارض وأحداث. وكان القادة والأمراء يبالغون في إجلال القضاة والفقهاء، ويرون أن بهم عرفوا دين الاسلام، وفي بركتهم يعيشون، وحسبُ أعظمهم قدراً أن يقبّل يد الفقيه والقاضي. ولكن الدنيا زينة وفتنة. وقد أغرتنا نحن العلماء

زينة هذه الدنيا، فتهافتنا عليها، ورحنا نتوسل الأسباب لكي نصل إلى المناصب. لم نتورع عن الحِطّة وهدر الكرامة، ولم نترفع عن الرشوة وشراء العلامة، وأصبح يكيد بعضنا إلى بعض. وكلنا نضطرب في هذه الدنيا وفتنتها ناسين علمنا. وناسين الأمانة الموكولة إلينا. وبدلاً من أن نكون طليعة الأمة، وكلمة الحق التي تقوّم الأحوال، وتردع السلاطين، نزلنا من أهل الدولة منزلة سوء. وتلكم فينا أقل المماليك شأناً، وأرذل الباعة بكل قبيح، عقوبة من الله لنا، لامتهاننا العلم، وخضوعنا في طلب الدنيا. وأنا نفسي أيها الناس، مرّ علي حين لم أرعَ فيه مقامي، ولم أحمل أمانتي. رشوت وتزلفت لكي أحصل على منصب قاضي القضاة، ولكي أتقرب من أهل السلطان والحظوة. وأني أستغفر الله على ما تقدم وما تأخر من ذنب، ولعل الرؤية التي زارني فيها النبي صلاة الله عليه وسلامه هي بشارة وعلامة. بشارة على الغفران وعلامة على الواجب الذي يتعيّن عليّ أن أتمّه. واجب الشهادة، والإسراع خفيفاً لملاقاة ربي.. أيها الناس.. قال لي الرسول الكريم "لن يكون الموت إلا كعبور جدول من الماء العذب". وهو وسط الخضرة . وسط الضوء والخضرة ينتظرنا على الضفة الأخرى، لكي يمسح على جراحنا، ويبارك جهادنا. أيها الناس الآن وأنا أتأهب للشهادة، يمكنني أن أسترد قَدْري، وأن أؤدي الأمانة الملقاة على كاهلي ، وأعلن، أنا القاضي المالكي عزل السلطان، وتلك الطغمة من الأمراء، الذين ينتهكون الحقوق، ويتسلّطون على العباد. أيها الناس.. سأنوي الآن، وسأصلي على نفسي صلاة الغائب. ومن شاء منكم فليتبعني. وليس أمامنا والله إلا المصابرة والقتال.

مؤرخ قديم: ولما أصبح أهل دمشق وقد فقدوا السلطان والأمراء، غلقوا أبواب دمشق، وركبوا أسوار البلد ، ونادور بالجهاد ، وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله أهل دمشق من أعلى السور أشدّ قتال، وردّوهم عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعة، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف.
وفي هذا اليوم، هبّت ريح باردة تلزق على الوجه وتجعل الأنف كقطعة البلّور. وارتفعت المياه في بردى وصارت تجري على قوّة، وتجرف الأغصان والجذوع المتكسرة.

تفصيل (13)

أصوات: (في البداية تتناهى بعيدة، ثم تتوضح أكثر، ثم تعلو وتتصاعد من حناجر كثيرة) مات التاذلي.. مات التاذلي..
شعبان: (يختلط صوته الذي يزداد عمقاً وانجراحاً مع الأصوات التي تنعي التاذلي) يمّه.. هاتي صدرك يمّه.. عطشان يمه.. أعطني حليباً يمّه.. هاتي صدرك يمّه.

المنمنة الثانية

ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون

أو

محنة العلم

تفصيل (1)

(بيت الشيخ التاذلي. شرف الدين، تلميذ ابن خلدون يجمع أمتعتهما، لكي ينقلها من البيت. تأتي سعاد وخلفها طيرة)

شرف الدين: (مرتبكاً) لا أعرف كيف أجد الكلمات. إني أشاطركم اللوعة مشاطرة الأهل.. ولا أدري هل ينبغي أن نبكيه أم نفرح له! لا تعرفين مقدار إعجابي به. وكم أثّر بنا المثل الذي قدمه!
سعاد: كان يسعى إلى هذا الختام، وناله، ولعل مقامه الآن خير من مقامه بيننا. هل حضر سيدي ابن خلدون الجنازة؟
شرف الدين: كان شديد التأثر والحزن، ولكن وعكة منعته من حضور الجنازة. يالله! لم أرَ في حياتي جنازة احتشد فيها هذا الجمع من الناس. كان النعش كأنه يطير فوق الأكف. وكانت الجموع تتفجّر انفعالاً وحماسة ، وكأنهم يقولون سنواصل دربك حتى نلحق بك، أو تزول هذه الغمة.

سعادة: هل تركت سيدك المتوعك وسرت في الجنازة؟
شرف الدين: هو الذي شجّعني .. ما كنت أستطيع ألا أحضر الجنازة.
سعاد: كم كان أبي يُجِلّ سيّدك . لقد استبشر خيراً بمجيئه، واعتبره أبداً وسنداً لنا في هذه المحنة . هل سمعت عن خطبته يا شرف الدين؟
شرف الدين: سمعت عنها! بل حفظتها وسجلتها. الناس جميعاً يتناقلونها، ويحفظونها.
سعاد: يبدو أنه أسرف في القسوة على نفسه.
شرف الدين: أتسمّين هذا السموّ قسوة؟! نعم.. لقد سما على نفسه، وتجاوز صغائر هذه الدنيا، وختم حياته ختاماً طاهراً مجيداً. حقاً.. ما أسعد من يقتدي به، وينال حسن ختامه!
سعادة: لا أدري.. أعتقد أنه كان يرتب المجريات بدأب وعناد. كي يفوز بهذا الختام. منذ تناهت أخبار تيمور، ومنذ رأى تلك الرؤيا، بدا إنساناً آخر، إنساناً انكشفت أمامه طريق جديدة، ولم يعد يستطيع التوقف حتى يصل

إلى غايتها. كان يبدو وكأن نداءً عميقاً ومتسلطاً يناديه، منذ فترة وقبل أن تأتوا، عرفت أنه يمضي كما لو كان مسيّراً بقوة جارفة، لكي يلبي النداء الذي يناديه.

شرف الدين: لن ينال تيمور بغيته إذا عرف أهل الشام كيف يقتدون به .

سعاد: هل تعتقد أنهم لن يسلموا المدينة؟

شرف الدين: (مستنكراً) ستكون كارثة إذا سلموا المدينة.

سعاد: إني أعرف كيف يفكر علماء وأعيان المدينة. أعتقد أيها المصري أن الكارثة قريبة، ولعلها تقع غداً أو بعد غد.. نحن أيضاً جمعنا أمتعتنا، وحزمنا ما هو ضروري لنا.. اليوم سنترك البيت، وننتقل إلى القلعة. تلك كانت وصية أبي لنا، وتلك كانت وصيّته لأمير القلعة. أين ستقيم مع سيدك؟

شرف الدين: في المدرسة العدلية.

سعاد: إنها مكان لائق.

شرف الدين: لن ينسينا أي مكان دفء وحفاوة هذا البيت.

سعاد: إنك طيب أيها الشاب. وددت أنا وأمي ، لو بادرَنا سيدك بكلمة عزاء.. ولكن هذا حمق نساء. عالم كابن خلدون هو دائماً معذور، ولا يجوز أن نبخس قدره بالملامة والعتاب. هل وضّبت كل شيء؟ ألا تريد مساعدة؟

شرف الدين (مرتبكاً) لا.. لقد انتهيت. (متردداً) لا أعرف كيف تجري الأمور.. ولكن إذا اقتضت الظروف.. هل تعتقدين أن الانضمام إلى القلعة ممكن؟

سعاد: بماذا تفكر أيها الشاب؟

شرف الدين: لا أدري.. هو خاطر جال في ذهني بعد حديثك عن العلماء والأعيان.. (متردداً) وربما بعدما علمت أنكم ستذهبون إلى القلعة.

سعاد: عندما يحين الوقت سنتدبر الأمر. حيّ معلمك وبلّغه سلامنا. أشكر تعاطفك يا شرف الدين، ولعلنا نلتقي في ظرف أفضل.

شرف الدين: (مندفعاً) أرجو فعلاً.. حقاً.. أرجو أن نلتقي.

(تمضي سعاد ومعها خادمتها، يقف شرف الدين ساهماً للحظات، ثم يصحو من شروده، ويبدأ برفع الأمتعة تأهباً للخروج، وتتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم: وفي جمادى الأولى وبينما أهل دمشق في أشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بعد.. "الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدّثه الأمير في ذلك.

وما زال البرد والزمتة على حالهما من الشدة.

تفصيل (2)

(العلماء .. ابن مفلح ، وابن النابلسي، وابن العز، ومعهم التاجر دلامة)

ابن مفلح: (متمسكناً) يا رب.. ولكن كيف يُعرف الصواب؟!

ابن النابلسي: حقاً.. هذا هو السؤال . كيف يُمتحن الصواب؟!

ابن مفلح: طوال الليل وانا أمخض هذا الأمر، وما حصلت على زبدة أو جواب. وخطر لي أن أخرج، وأقول للناس ليس لدي إلا حيرتي، ولا أدري في هذا الظرف كيف يُعرف الصواب!

دلامة: ليس الظرف مناسباً للمداورة ومداهنة العامة. كلنا نعرف ما هو الصواب في حالتنا.

ابن العز: صحيح.. ينبغي أن نكون صلاباً في موقفنا، وقساة مع الناس في حملهم على رأينا.

ابن مفلح: هل يعني ذلك أنكم متفقون على أن تسليم المدينة هو الصواب؟

دلامة: لا تتلاعب يا ابن مفلح.. أنت أكثرنا يقيناً بأن هذا هو الصواب. كم مرة تحدثنا في الأمر! إذا لم نسلم الآن المدينة بالأمان فكم نستطيع الصمود! نعم.. إن أسوارنا قوية، وبعض الناس ولاسيما أولئك الأحداث يبدون اندفاعاً وحماسة للقتال. ولكن إذا استطاعت الأسوار أن تصمد أمام تيمور فترة من الزمن، وتضيع المراتب، ويصبح الحال فوضى يهون أمامها الاحتلال.. سيصير كل حامل سيف رأساً، وسيكون علينا أن نغذّي الناس جميعاً من أرزاقنا وأموالنا.. وبعد أن تكون قد ضاعت الأموال والمقامات، يظلّ علينا أن نواجه غضب تيمور الذي لن يفلت منه حيّ أو جماد.

ابن العز: ولا تنسَ يا ابن مفلح أن أرزاقك كلها خارج السور ، وأننا إذا لم نسلم بالأمان، لن تستطيع حماية شيء من أرزاقك.

ابن مفلح: أعرف.. أعرف.. ولكني خائف من الناس: الدماء فائرة والعقول تلبّستها الأوهام بعد صمود يوم الجمعة ومقتل ذلك المخرّف.

ابن النابلسي: حظي هذا المخرّف بجنازة يحسده عليها السلاطين.

ابن العز: كان كثير الحركة، طلق اللسان، والناس تؤخذ بالأوهام وتنميق الكلام .. ولكن هذا لا يعني أن البلد خلت من العقلاء ، وأن علينا أن نسلّم مصيرنا وشرفنا لتهوّر بعض الأحداث. إذا رأينا أن التسليم هو الصواب وأعتقد أنه الصواب، فيجب أن نتّخذ القرار. وأن نواجه الناس بحزم وإقناع.

ابن النابلسي: هل تعتقدون أن رأي ابن خلدون سيوافق رأينا؟

ابن العز: أعتقد أنه سيوافقنا الرأي. وعلى كل، بعد قليل سنعرف رأيه على اليقين.

دلامة: ما يهم الآن، هو أن نكّون رأياً واحداً وألا نبدي لجلجة أو تردداً. علينا أن نتخذ القرار، وأن نتعهد بالقسم على المضي به. وأبدأ بنفسي.. إني مع تسليم المدينة بالأمان، وأرشح ابن مفلح الذي يحسن الأعجمية، كي يقوم بالسفارة، ويتقدم وفدنا إلى تيمور.

ابن العز: وهذا هو رأيي. . على أن نكون جميعاً في الوفد.

ابن النابلسي: وأن نتقاسم هذا الأمر، خيره وشره.

ابن مفلح: على بركة الله.

ابن العز: فلنقرأ الفاتحة.

ابن النابلسي: (يباعد المشخّص بينه وبين الشخصية) يصف مؤرّخ قديم، لعلّه الحافظ بن الحجي، شمس الدين النابلسي فيقول: ولم يكن بالمرضي في شهادته ولا قضائه، وباع كثيراً من الأوقاف بدمشق. قيل إنه ما أبيع في الإسلام من الأوقاف ما أبيع أيامه وقلماً وقع منها شيء صحيح في الباطن. وفتح على الناس باباً لا ينسدّ أبداً. ولما جاء تيمور لنك، دخل معهم في أمور منكرة، ونُسبت إليه أشياء قبيحة من السعي في أذى الناس وأخذ أموالهم.

ابن العز: (يباعد المشخّص بينه وبين الدور) أما ابن العزّ فيصفه مؤرخ قديم قائلاً: اشتغل بالقضاة فترة. ولما كانت فتنة تيمور، دخل معهم فبي المنكرات، وولي القضاء من قبلهم، ولُقِّب قاضي المحكمة، واستخلف بقيّة القضاة من تحت يده. وخطب بالجامع باسم تيمور ودخل في المظالم وبالغ في ذلك، فكرهه الناس ومقتوه.

ابن مفلح: (يباعد المشخّص بينه وبين دوره) وقال المؤرخ عن ابن مفلح: ألّف عدة كتب، منها كتاب الملائكة وشرح المقنع ومختصر ابن الحاجب، وعدم غالبها في فتنة تيمور. انتهت إليه في آخر عمره مشيخة الحنابلة، ثم ولّى القضاة مستقلاً في رجب سنة 801 هجرية. ولما جاء تيمور، خرج إليه ومعه جماعة وجري منه لأهل دمشق أمور، وتفاقم الأمر وحصل عليه تشويش من تيمور فعذب حتى اعطب.

دلامة: (يباعد المشخص بينه وبين الدور) أما دلامة التاجر فقد أخطأ المؤرخ حين أهمله، وجهل قدره، فلم يعرّفه.

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (3)

(قاعة في المدرسة العادلية، ابن خلدون وشرف الدين يرتّب القاعة، ويضع مقاعد بينما يدوِّن ابن خلدون بعض الأفكار)

شرف الدين: صار المكان لائقاً لاستقبال العلماء والأعيان.

ابن خلدون: (يتريث فترة قبل أن يرفع رأسه) العلماء والأعيان يقبلون عليّ لا على المكان.

شرف الدين: أعرف ذلك يا سيدي. من يبالي بالمكان حين يكون في حضرة الشهاب اللامع سيدي عبد الرحمن؟ لا شك أنهم جاؤوا كي يضعوا الأمر بين يديك. وهل هناك رجل سواك يمكن أن توضع هذه الأمانة بين يديه؟

ابن خلدون: أية أمانة؟

شرف الدين: أن تهدئ روع الناس وتحملُهم على الجهاد.

ابن خلدون: ألا تعلم يا شرف الدين أن صبغة الدين حالت، وأن عصبية العرب زالت. وأن الجهاد لم يعد ممكناً.. لا.. لا يتحدث عن الجهاد هذه الأيام إلا رجل يضرب في الوهم، أو يريد أن يلبّس على الناس.

شرف الدين: لا أتحدث عن جهاد الصحابة والتابعين وأيام الفتوحات، وإنما أعني مدافعة هذا الكافر تيمور، وأهل الشام يبدون عزماً على القتال، وهم لا يحتاجون إلا عالماً مثلك يشدّ أزرهم، ويضيء قلوبهم بأنوار تجاربه وحكمته.

ابن خلدون: ماذا تخرّف يا شرف الدين؟ أتريدني أن أتحوّل إلى القتال؟ هل جئتُ إلى دمشق مقاتلاً أم عالماً؟ هل جئت كي أحمل السيف أم كي أسجّل الأحداث وأستصفي زبدتها وعبرتها؟ حذرتك مراراً أن الهوى والانفعال يفسدان البصيرة، ولكن يبدو أن هياج التاذلي وهلاكه غلّبا لديك انفعالية الدهماء على حكمة العلماء.

شرف الدين: عفوك يا سيدي.. لا أنكر أني مأخوذ قليلاً بما فعله التاذلي. آه لو سمعت ابنته.. كان يجلّك إجلاله للأولياء، وكان يعتبر قدومك عوناً من السماء.

ابن خلدون: كان يريد أن يعلو تحت نجمي، وأن يستقوي بجاهي.

شرف الدين: أيمكن يا سيدي أن تزدريه رغم ما قدمه من تفانٍ وكرم؟!

ابن خلدون: (باحتقار) لم يكن التاذلي إلا مُوسوِساً وأنا أنفر من الموسوسين.

شرف الدين: ماذا تعني يا سيدي بالموسوسين؟

ابن خلدون: هم هؤلاء الذي يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ومواجهة الغزاة ولا يعرفون ما يحتاجون إليه من العصبية، ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم. إنهم كالمجانين أو الملبِّسين، يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم، وعجزوا عن التوصّل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذه الدعوات يمكن أن تصل بهم إلى ما يأملون من الرئاسة والجاه. وهي لا تصل بهم إلا إلى الهلاك وسوء العاقبة. وما يحتاج إليه هؤلاء الموسوسين هو المداواة إن كانوا من أهل الجنون وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً ، وإما إذاعة السخرية منهم وعدّهم من جملة الكاذبين.

شرف الدين: آه يا سيدي.. أكاد لا أصدق.. أيمكن أن تصف رجلاً مات وهو يقاتل العدو بالمجنون أو الكاذب؟

ابن خلدون: أليس مجنوناً أو كاذباً هذا الذي يتصدّى لأمر ليس له، ولا يملك أسباب القيام به.! من ندبه للقتال؟

شرف الدين: حميّتُه وحبُه لأهله وبلده.

ابن خلدون: لا.. لم يكن حب الأهل والبلد إلا دافعاً ظاهرياً، وما كان يدفعه على الحقيقة، إنما هو الرغبة في التشوّف على الناس ومباهاتهم.

شرف الدين: أيدفع حياته ثمناً للتشوّف والمباهاة؟

ابن خلدون: هؤلاء الموسوسون عميان البصيرة. وهم بالغفلة يرمون بأنفسهم إلى التهلكة. على أية عصبية كان يعتمد التاذلي فيما زعمه من القيام بالجهاد؟

شرف الدين: على عصبية أهل الشام وحماستهم القتال. لقد تحدّثتُ مع الكثيرين أثناء الجنازة ولمستُ بنفسي عزمهم على الصمود والمقاومة.

ابن خلدون: (منافقاً) هذه ليست عصبية يا شرف الدين. تشدُّقُ الأحداث وهياجُ العامة والدهماء ليس من العصبية في شيء والناس هنا أهل مدينة وحضارة، بلغ فيهم الترف غايته، وسقطت منهم العصبية بالجملة، يلبّسون على أنفسهم في الشارة والزيّ وحمل السيف والرمح، يموّهون بها. وهم في الأكثر أجبن من النسوان في الحماية والمدافعة.

شرف الدين: هل أفهم يا سيدي أنك قررتَ أن تُشير عليهم بالاستسلام؟

ابن خلدون: (متضايقاً) لم أقرر شيئاً بعد . عندما يأتون سنقلّب الرأي، ونمعن النظر.

شرف الدين: أخشى يا سيدي..
ابن خلدون: (مقاطعاً) إذا لم تسيطر على فورة عواطفك فلن تحوز ملكة العالم وشروطه.
شرف الدين: إني أقدر نصيحتك يا سيدي ولكن هناك ما يحيرني قليلاً: لا شك أن من شروط العالم ، أن يكون محايداً ودقيقاً حين يسجّل أحداثَ عصره ووقائعه ولكن.. لا أدري.. إني أتساءل فقط يا سيدي.. هل يجوز أن يسلك العالم إزاء المحن التي تصيب قومه وبلاده مسلكَ الحياد؟ وهل هذا من شروط العلم ونزاهته؟
ابن خلدون: هذا سؤال يفصح عن نباهة. وما أحبه فيك هو نباهتك وحياؤك، يبدو انهم وصلوا. لن أنسى سؤالك وفي العشية سنبادر للإجابة. اذهب الآن ، ورحبّ بالعلماء والأعيان.

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: وفي 22 من جمادى الأولى، اجتمع الأعيان والعلماء مع ابن خلدون في المدرسة العادلية، وقد وافق فكرهم فكره، واتفقوا على التسليم ، وإرسال ابن مفلح إلى تيمور، ليتداول معه شروط الأمان ، ولكن أمير القلعة أنكر عليهم هذا الاتفاق ، وأغلظ لهم في القول فلم يعبّره الأعيان، وقالوا له: أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على مدينتا.
وكان الناس في غاية التشويش.
وفي الغداة ، أرسلوا ابن مفلح ومعه شخصان من الأعيان . أرخوهم من أعلى السور بسرياق، وكانوا يرفعون المصاحف فتلقّاهم رجال تيمور، ومضوا بهم إليه.
وفي هذا اليوم، سمعت أن أتاناً ولدت كراً صغيراً له رأس إنسان وليس له ذنب. وهذه من الغرائب والعلامات. وانحبس المطر مع شدة الزمتة.
وبردى يجري بين السور وعسكر تيمور، والماء يغدق فيه غدقاً.

تفصيل (4)

(الديوان في قلعة دمشق. آزدار ونائبه شهاب الدين)

شهاب الدين: والآن ما العمل أيها الأمير؟
آزدار: مقرف أعيان وعلماء ينوحون كالنساء! لا شك أنهم بيّتوا الأمر منذ وقت طويل. لم يكن اجتماع كلمتهم ابن ساعته. لم نقلب أمراً ولا رأياً. كانوا متّفقين على رأي واحد، وتركوا ابن خلدون يقدّمه ويزيّنه. طراز من العلماء فاسد، جبان، متهالك!

شهاب الدين: هذا كله نعرفه. والغضب لن يبدل قرارهم، وابن مفلح يتحرّق للخروج إلى تيمور، فما العمل أيها الأمير؟

آزدار: لا أدري.. سأحرق المدينة على علمائها وأعيانها وعامتها.

شهاب الدين: هدئ غضبك أيها الأمير.. لن تحرق المدينة ، ولن تطاوعك يدك على مسّها بالأذى.

آزدار: أعرف.. أعرف.. ولكن الغضب يخنقني.

شهاب الدين: أيها الأمير.. هذا وقت الترويّ لا الغضب. حشرونا في مأزق، وعلينا أن نجد حلاً قبل فوات الأوان.

آزدار: هل لديك اقتراح معين؟

شهاب الدين: الواقع لا يوجد إلا سبيل واحد للخروج من المأزق الذي حشرونا فيه.

آزدار: وماذا ترى؟

شهاب الدين: أن نسيطر على المدينة هذه الليلة.

آزدار: أن نسيطر على المدينة؟

شهاب الدين: نوزّع رجالنا على النقاط الحساسة فوق الأسوار في المدينة. ونضمّ إلينا الشباب الذين يريدون المقاومة والقتال. أما العلماء والأعيان فندفعهم إلى سجن القلعة، أو نجبرهم على ملازمة بيوتهم، والامتناع عن الاتصال بالناس. هذا هو التدبير الوحيد الذي يحفظ المدينة ويمنع عزل القلعة والاستفراد بها.

آزدار: وهل تعتقد أن رجالنا يكفون لأداء هذه المهمة؟ إنها خطة بارعة ولكن أخطارها هي الأخرى جسيمة.

شهاب الدين: أنا أعرف المدينة جيداً. وأعرف أن معظم اهلها يريدون المقاومة لا الاستسلام.

آزدار: ومع هذا فإن الأهواء متضاربة والأفكار مشوشة، والمسُّ بالعلماء والأعيان قد يشعل لنا فتنة تحرقنا جميعاً.

شهاب الدين: ربما واجهنا حوادث متفرقة ولكن لن تنشب فتنة.

آزدار: لن أفرق رجالي الموثوقين، وأبعثرهم في فوضى المدينة. إنها مخاطرة جسيمة العواقب. افرض أن بعض الأحياء قاومت، أو أن الأعيان حرّضوا الأتباع، وجنّدوا الزعّار والسفهاء، ورجالنا عددهم قليل، والمدينة تتوزعهم وتفك اللحمة بينهم. لا.. هذه مخاطرة وخيمة.

شهاب الدين: ما نحن فيه يستحق المجازفة أيها الأمير.

آزدار: لا يمكن أن أجازف بالقلعة، وهي حصننا، وهنا سنرفع شرفنا، ونؤدّي واجبنا. ثم ما لنا ولهذه المدينة المتقلبة؟ مدينة، أعيانها وعلماؤها خائرون، ويتسابقون كي يلحسوا مؤخرة العدو.

شهاب الدين: المدينة هي ظهرنا، وما فيها من السلاح والرجال سيضاعف صمودنا.

آزدار: وإن ضاع رجالنا ولم نكسب المدينة؟ لا.. لن أجازف بالقلعة.

شهاب الدين: أخشى أن نندم بعد فوات الأوان.

آزدار: ربما كتب علينا أن تكون هذه القلعة هي الحصن الأخير الذي يقاوم تيمور ويقول له لا..

شهاب الدين: ونترك المدينة تستسلم ، وتفتح أبوابها للتتار؟!

آزدار: سنهددهم ونمنعهم من فتح الأبواب، ولكن موقعنا هو هذه القلعة، هنا سنصمد، وهنا سنقاتل إلى ما شاء الله.

شهاب الدين: طيب.. هل نضم إلى القلعة المتطوعين من مقاتلي المدينة؟

آزدار: لا أمانع.. ولكن عليك أن تحسب حساب المؤونة. لا أريد أن يفتقد الرجال الطعام والشراب وقت الحصار. تنتظرنا أيام مشهودة يا شهاب الدين.
شهاب الدين: نعم.. ستكون أياماً مشهودة.

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (5)

مؤرخ قديم: (مع كلام المورخ يظهر يظهر مشهد إيمائي، ويمكن استخدام خيال الظل أيضاً لعدد من الرجال في صحن الجامع الأموي، يتجادلون ويتصايحون، يعلو الهرج تدريجياً حتى يتحول شجاراً واشتباكات تتخللها الصيحات الغاضبة) وعاد ابن مفلح في نهاره هذا، منشرح الصدر والأسارير، وأخبر أن تيمور أكروم وفادته وتلطّف معه، وقال هذه بلدة الأنبياء والصحابة..

صوت أحمد: لا نسلم.. وكلام هذا الأعرج الدجال كالضراط على البلاط.
مؤرخ قديم: وقد أعتقها لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – صدقة عني وعن أولادي.
صوت ابن النابلسي: عساكره تغطي الأرض فما حاجته للكذب أو الخداع؟
صوت مروان: كم أمّن وكم خان!
مؤرخ قديم: ولم يبقَ لي الآن غرض إلا العود، ولكن لا بد من أخذ عادتي من الطّقزات. والطقزات على عادة ملوك التتار هي تسع من كل صنف من أصناف الهدايا ، من المأكولات والمشروبات والدواب والملابس والتحف وسوى ذلك من الهدايا.
صوت ابن مفلح: ومن منا يفضل الإمام ابن تيمية.. ألم يخرج ابن تيمية إلى سلطان المغول غازان ويستخلص منه الأمان لدمشق الشام؟!
مؤرخ قديم: وشرح ابن مفلح عن تيمور محاسن كثيرة ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله، ويرغبهم في طاعته.
صوت رجل: في المدينة ميرة تكفيها سنوات، وأسوارها حصينة، ويمكن أن تصمد هي الأخرى سنوات، فلمَ الاستسلام؟
صوت ابن العز: هذا كلام جهال.
مؤرخ قديم: وصار أهل البلد فرقتين، فرقة ترى ما رآه ابن مفلح، وفرقة ترى محاربته، ولم تسمع قول ابن مفلح.
صوت أحمد: أنت مَرَة..
صوت محمد ابن أبي الطيب: ألي تقول هذا يا بعرة الجمل؟!
(يتشابكان)

مؤرخ قديم: وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ولم يرجعوا عن قتال تيمور وهم الجم الغفير من أهل دمشق.

أصوات متداخلة: لا نسلّم.

- بل نسلّم.

- إذا ضاعت الشام. ضاعت كل البلاد. وغداً يكبس القاهرة. ويتسلطن على عرش العامة.

- سنقاتل.

- الأمان يحمينا.

- لن نرمي سيوفنا.

صوت ابن مفلح: من استشار الجاهل ضلّ، ومن جهل موضع قدمه زلّ.

- لا نسلم.

- بل نسلم.

(يتشابك الناس في عراك، ترفع فيه السيوف)

صوت ابن مفلح: (جهورياً وآمراً) نحن العلماء والأعيان قررنا التسليم بالأمان. لا مقاومة ولا قتال، ومن خالف ذلك قُتِل وهُدِر دمه.

صوت شعبان: يمه .. يمه .. هاتي صدرك يمه .. يمه

(تتلاشى الإضاءة ببطء فيما يستمرّ العراك)

تفصيل (6)

(منزلة ابن خلدون في المدرسة العادلية. السراج واهن الضوء، يحاول ابن خلدون إصلاحه فلا يفلح، يبدو متوتراً، يذرع المكان جيئة وذهاباً، يدخل شرف الدين)

ابن خلدون: ما الخبر؟

شرف الدين: الناس يتشاجرون في الجامع الأموي، والغالبية ليست مع التسليم.

ابن خلدون: هذا خبر مقلق. أخشى أن يتوهم تيمور أن لي يداً في هذا الانقسام. يجب أن نبادر إلى الخروج من المدينة مع السحر. انظر هذا السراج، ماذا دهاه!

(يعالج شرف الدين السراج، ويصلحه)

شرف الدين: ألن يخرج سيدي مع الوفد؟

ابن خلدون: لا..لا أريد أن أخرج مع الوفد. أريد أن أمْثُل بين يدي تيمور وحدي. لقد سأل ابن مفلح عني، وأخاف أن تساوره الظنون حولي، إن تفاقمت الفتنة بين الناس.

شرف الدين: لم يفت الأوان بعد يا سيدي.. نائب القلعة لن يسلم ومعظم الناس يطلبون القتال.

ابن خلدون: أين الهدايا التي حضّرناها.! تعالَ نرتّبها.

(يحمل شرف الدين من زاوية الغرفة بعض الأشياء، ويتناولها ابن خلدون)

ابن خلدون: هذا هو المصحف.. (يضعه على رأسه) وهذه هي السجّادة.. كانت لقية ثمينة، ولم ندفع فيها غالياً. هل تظنّ أنهم خدعونا بالسعر؟

شرف الدين: ألم ترَ شدّة توقيره يا سيدي.! لو قبلت لقدّمها هدية لك.

ابن خلدون: نعم.. إن الناس هنا يعرفون مقامات الرجال أكثر من القاهرة . وهذه نسخة من قصيدة البردة في مدح النبي للبوصيري مع شرحي عليها، هدية العالم يجب أن تنمّ عن الذوق والكياسة. ألا تنمّ هديتنا عن الذوق والكياسة؟

شرف الدين: وهل يعرف الأجلاف الذوق والكياسة؟

ابن خلدون: لا تنسَ أنه ملك عظيم وحوله بطانة وافرة من أهل الخبرة والذكاء. لن نضع علب الحلاوة مع المصحف والسجادة والقصيدة. هات كيسين من الحرير. في واحد علب الحلاوة، وفي الثاني المصحف والسجادة والقصيدة.

شرف الدين: ألا يمكن أن يغيّر سيدي رأيه؟

ابن خلدون: أغيّر رأيي؟! بل أريد أن أقصّ جناح الليل كي يبكر السحر في البزوغ. سألتني يا شرف الدين عن الحياد، وأقول لك إن ابن خلدون الانسان ليس محايداً كما تظن، لكنه واقعي، ويعرف قوانين الأحداث ومجراها. جئت إلى الدُّنيا في زمن الاضمحلال. وكلما كبرت وأمعنت النظر ما وجدت حولي إلا آثار الاضمحلال وعوارضه. انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، ونزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم. وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها. جاء الطاعون للدّول على حين هرمها، فقلّص من ظلالها. وأوهن من سلطانها، وانتفض عمران الأرض بانتفاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم، وضعفت الدول والقبائل نعم.. كيفما تلفّت حولي، لم أكن أجد إلا الاضمحلال.. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض من عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد وعالم محدث ، فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها. وهذا ما أخذت نفسي به، وما توفّرت على إنجازه. أما الغضب والتحسّر والمكابرة فقد تركتها للذاهلين والحمقى من غمار العامة.

شرف الدين: (يباعد بينه وبين دوره) لا شك أن تلميذ ابن خلدون، إذا وجد، كان يحاوره عن زمانه وزماننا أيضاً ، ولهذا لا غضاضة إن ساعدناه على صياغة شكوكه، وبلورة أفكاره.

ابن خلدون: نعم.. أن أقفو أثر مؤرخ كبير كالمسعودي لزمن الاضمحلال هذا.. تلك هي بغيتي، وذاك هو شاغلي.

شرف الدين: أليس من مهمة العالم يا سيدي أن ينير للناس ضوءاً، أو أن يهديهم إلى سبيل يخرج بهم من الانحطاط؟!

ابن خلدون: لا.. ليست تلك مهمة العالم.

شرف الدين: وما مهمة العالم إذن؟

ابن خلدون: مهمة العالم أن يحلّل الواقع كما هو، وأن يكشف كيفيات الأحداث وأسبابها العميقة.

شرف الدين: كان العلماء دائماً يحلمون، ويبحثون عن السبل التي يعالجون بها علل عصرهم، ويضعون للناس تصورات عن مجتمعات فاضلة تليق بالإنسان والمجتمع الإنساني. ألم يضع الفارابي كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة)؟ ألم يؤلف المعلم أرسطو كتابين في الأخلاق والسياسة، وسواهم كثيرون؟

ابن خلدون: هؤلاء لم يعرفوا علم العمران. ولم ينكشف لهم ما يطرأ عليه من العوارض الذاتية، والتغيّرات الحتمية. هؤلاء لم يفهموا أن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصّه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله. إن للعمران قوانين ثابتة ومطردة كتلك التي تحكم الفصول في تعاقبها، والليل والنهار في اختلافهما. وهذا الجهل هو الذي جعلهم يتوهمون أن أحوال الدول يمكن تغييرها بالوعظ والإرشاد، أو يمكن إقامتها على التمنّي والأحلام. إن كتب الفارابي وأرسطو والماوردي وسواهم هي كتب في السياسة المدنية والسياسة المدينة هي في العلوم أقل شأناً من علم العمران. هذا العلم يا شرف الدين مستنبط النشأة ، ألهمني الله إليه إلهاماً، ولم يسبقني إليه أحد من الغابرين. ولو أضاء الله أنوار هذا العلم للفارابي وأرسطو وأفلاطون لأعرضوا عما كتبوه ، أو بدلوه بالكلية.

شرف الدين: أنا أعرف يا سيدي أنك جئت بعلم لم يسبقك إليه أحد، ولكن سأصارحك القول.. كلما قرأت فصلاً من فصول المقدمة شعرت بالانقباض وأدركني اليأس. إذا كانت ظواهر العمران لا تحدث باختيار، وإنما بضرورة الوجود وترتيبه، فماذا يبقى للناس؟! لا يبقى لهم إلا الخمول والجريان مع هذه الدورة الجبّارة، التي تدور بهم من البزوغ إلى التلاشي والموت! ماذا يستطيعون أن يفعلوا حين تشرف دولتهم على الهرم؟ لا شيء.. لم تترك لهم إلا لبس الأكفان. والاستعداد للتفسّخ والانحلال.

ابن خلدون: ينتظرون ظهور المهدي، أو يرصدون نذر القيامة وميقاتها، حتى تقهرهم ، وتسيطر عليهم عصبية جديدة أو غازية.

شرف الدين: كما هو حالنا الآن مع تيمور!

ابن خلدون: نعم.

شرف الدين: هذا علم مُحبط يا سيدي.

ابن خلدون: المعرفة على الحقيقة ، لا تبالي بالاحباط. ومهما كان وقعها على النفس ثقيلاً، فإنها أفضل من الزيف والدجل.

شرف الدين: وماذا يسعنا أن نفعل بهذه المعرفة؟

ابن خلدون: يمكن أن نفهم لماذا تداعى أمر السلطان وأفل نجمه. ولماذا يعلو شأن تيمور ويتألق نجمه.

شرف الدين: سيدي.. لماذا لا تقيم وزناً لجموع الناس، وما يمكن أن يفعلوه اذا وحدّت بينهم فكرة ومصلحة، وانعقد لديهم عزم وإرادة؟

ابن خلدون: في غياب العصبية والشوكة، لا تنفع الفكرة والمصلحة. والعزم الذي يبدونه ليس إلا وهماً يخدعون أنفسهم به.

شرف الدين: ألا يمكن أن تغني الفكرة والمصلحة عن العصبية؟!

ابن خلدون: لا.. هذه كالدين تردف العصبية، لكنها لا تقوم مقامها، ولا تغني عنها. إن صلة الدم والنسب مع إرادة الاستيلاء والغلب، هي أصل الدول، ومحرك الجماعات والأمم.

شرف الدين: بَعُدْنا عن البداوة.. ولعل من طبيعة الأحوال، أن نفتش عن عصبية جديدة، عصبية قوامها وحدة الأمة ومصلحة العباد ومدافعة الطامعين والغزاة.

ابن خلدون: إن العصبية لا تصطنع ، ولا تختلق، بل تصدر صدوراً طبيعياً. والعصبية في هذه البلاد وهنت ولم يبق لها شوكة.

شرف الدين: لو أن سيدي يثق بالشعب، ويوليه ما أولى الملوك من النظر والاهتمام!

ابن خلدون: الناس بلا عصبية، رعية بلا حول ولا طول. وأغلب الذين يتنفَّجون هم السفهاء والدهماء.

شرف الدين: إذن.. لا أمل ولا حلم..

ابن خلدون: في هذا الغروب الشامل قد تكون قبسة الضوء الوحيدة هي وصف هذا الغروب والشهادة عليه.

شرف الدين: حين تلم بنا الخطوب ويهدد الخطر وجود الأمة، من المحزن ألا يكون لدى الأمة من تستنجد به إلا علماء بلا قوة أو شوطة.

شرف الدين: لماذا لم تسافر مع السلطان يا سيدي؟

ابن خلدون: لا أريد أن أتورط في فتنة بين السلطان وأمرائه . (تغيب عيناه في تأمل شارد) وهناك سبب آخر.. طوال حياتي، وأنا أعاشر وأخدم أمراء وسلاطين ناقصين، لا تتوفر لهم منن شروط الإمارة أو الملك إلا أقلها.. والآنـــ تتوفر الفرصة كي ألتقي الملك على الطبيعة، فهل أضيعها؟! ولكن.. إذا ساورته الظنون والريب، فقد هلكت.

شرف الدين: هل أنت خائف يا سيدي؟

ابن خلدون: هل أنا خائف؟ في زمن الغروب والهرج، حظٌ كبير أن ينجو المرء بنفسه وعلمه (يتمطّى) أرهقني هذا الجدل. لنسترح قليلاً ، فأمامنا نهار حافل وعصيب.

(تتلاشى الإضاء ببطء فيما يرقد ابن خلدون في فراشه)

تفصيل (7)

(في بيت مروان يدخل مروان حاملاً على ظهره صرة كبيرة، تخفّ زوجته وتساعده على وضع الصرة على الأرض)

مروان: هذا كل ما لدينا من الحرير. أين تقترحين أن نخبّئه؟

خديجة: استرح الآن قليلاً. ألا تريد أن تفطر؟

مروان: لا شهية لدي.. في صدري ضيق وانحباس. منذ الفجر يتراءى لي غراب أسود يحول فوق رأسي. لعلي رأيته في المنام.. لا أدري . لكنه يتراءى لي، ويلازمني منذ الفجر.

خديجة: استهد بالله يا مروان.

مروان: لا إله إلا الله. . لا أخفي عليم. إني متطيّر، ولا أعتقد أننا سنعبر هذه المحنة.

خديجة: لا يا مروان.. إنك تخيفني. لا يجوز أن تفقد الأمل . الله رحيم ولن يتخلى عنا. هو الذي يكسر، وهو الذي يجبر أيضاً.. هل تذكرت حلاوة طرابلس؟

مروان: نعم.. واشتريت لك أوقيتين منها.

خديجة: (بفرح) ماذا تنتظر؟ بدأ لعابي يسيل.

(يخرج من أحد جيوبه لفّة حلاوة، فتلقفتها خديجة بلهفة، وتلتهم بنهم غريب قطعاً منها).

مروان: أتشتهين الحلاوة إلى هذا الحد؟

خديجة: وما حيلتي يا ابن عمي؟ لقد أخفيت عنك سراً صغيراً.

مروان: أي سر؟

خديجة: إنه الوحم. أتعرف ما هو الوحم؟

مروان: هل أنت حامل؟

خديجة: قل إن شاء الله.. ألا تأكل قطعة من الحلاوة؟

مروان: نعم سآكل.. ألا نستحق البشارة! كم تاقت نفسي إلى هذه اللحظة. ولكن من يجرؤ على الفرح الآن؟

خديجة: يجب أن نفرح. وسترى.. إن إيماني بالله كبير، ولن يمسّنا الأذى.

مروان: يا رب، وأنت القدير على كل شيء. نسألك اللطف والرحمة. (يقترب منها ويتحسس بطنها) إن مشاعر غريبة تفيض في صدري . أريد أن أصرخ. أن أخبر الناس. لا.. لا.. لن نخبر أحداً. سيكون هذا سرنا. والأمل الذي يقوّي عزيمتنا. لماذا لم تشعلي ناراً؟

خديجة: قلت أمسك يدي في إيقاد الحطب. أخشى أن ينفذ ما لدين اقبل أن نستطيع تدبير كيس آخر.

مروان: سندبر . لا تخافي. صحتك الآن أهم شيء في الوجود، ولدينا وفر يكفينا، في هذه الصرة ، قطع من الحرير ثمينة جداً. أتعلمين؟ لقد ثأرت من ذل طفولتي. ينبغي أن تعرفي شيئاً عن هذا الذل وضعني أبي حين كنت طفلاً عند عمي كي يستعملني، ويعلمني الحياكة. كان يعريني، ويرفع رجلي إلى رأسي، كي يلف الخيوط على جسدي ويزردها. كان قاسياً، لا يعبأ بي إن بردت أو تعبت. وكنت دائماً أشعر بالذل من عريي والطريقة التي يستخدم بها جسدي الصغير. ومنذ تلك الأيام قررت أن أصبح معلم الصنعة. شهد لي معلم الحريريين بأني ماهر وفنان، وأن بعض القطع التي أحيكها، تحف رائعة، نعم.. صرت معلماً، وتزوجتك، وها أنا أنتظر طفلي الأول.. آه.. تبدد ضيقي. أشعلي النار، وأنا سأفك الصرة، وأبحث لها عن مخبأ.

(يفك مروان الصرة، بينما تحمل خديجة قطع الحطب، وترتبها في الموقد. طرق على الباب، يدخل أحمد مهتاجاً).

أحمد: أكاد أجنّ.. يبناً سأفقد عقلي.. خرج الكلاب يا مروان، خرجوا محملين بالهدايا، وبكل ما يخطر على البال من الهدايا. لا.. لم يخرجوا ، لم يسمح لهم أمير القلعة بالخروج من باب النصر، فتدلوا كاللصوص من فوق السور.. أكاد أجنّ.

مروان: اهدأ يا أحمد. كنا نعرف أن القرار اتُّخذ ، وأنهم سيخرجون .

أحمد: وسيدخل التتار إلى دمشق.

مروان: ماذا نفعل؟ غلبنا الأعيان والعلماء.

أحمد: هؤلاء العكاريت، هؤلاء الخونة.. هؤلاء السفلة.

مروان: اهدأ يا أحمد ، ولا تضيع علينا فرحتنا الصغيرة

أحمد: أتتحدث عن الفرح.. وهل هناك فرح؟!

مروان: إن خديجة حامل. وسأصبح أباً.

أحمد: حقاً؟! هذا وقته. وماذا ستسمي الولد؟ تيمور..

خديجة: لا يا أحمد.

مروان: ولماذا تريد دائماً مغاضبتي؟

أحمد: لأنك كالنساء العجائز، لا تفكر إلا في شؤونك الصغيرة. حريرك.. وبيتك وسلامتك.. والآن طفلك..

مروان: وبماذا تريدني أن أفكر؟ أهذا كلام يا خديجة؟

خديجة:فعلاً .. وعلام تلومه يا أحمد؟

أحمد: (وهو يخرج زجاجة من جيبه) ألا تدركان! إن التتار سيدخلون إلى دمشق. حين أتصور ذلك، أشعر بالجنون.

مروان: اسمع يا أحمد.. لقد بذلنا جهدنا. ألم نبذل جهدنا؟ ولكنا غُلبنا، وعلينا الان أن نهدأ. أن نتوخّى الحذر، ونتدرب على الصبر وقوة الاحتمال.

أحمد: (وهو يكرع من الزجاجة) أي أن نتدرب على الخنوع والذل.

مروان: (صارماً) لا أريد أن تشرب هذا المنكر في بيتي.

أحمد: ماذا تعني! هل تطردني؟

مروان: إني خائف عليك.. ينبغي أن تهدأ، وهذا المنكر لن يساعدك على شيء.

أحمد : لا يهدأ إلا عديم الإحساس. كيف أتحمل ما يجري إذا لم أشرب!

مروان: (محتداً) قلت لا أريد أن تشرب هذا المنكر في بيتي.. إذا كنت غاضباً إلى هذا الحد، ولا تستطيع أن تتحمل ما يجري ، فاذهب إلى القلعة، وقاتل مع أهلها.

أحمد: أأنت أيها الخَرع من يطلب مني القتال؟ تعال نذهب معاً إن كنت رجلاً.

خديجة: لا.. زوّدتها يا أحمد يريد مصلحتك.

مروان: اخزِ الشيطان.. عار علينا أن نتشاجر.

أحمد: هل يروقني الشجار مع واحد مثلك؟ ولدت صغيراً وستظل صغيراً.

مروان: اخرج من بيتي.

أحمد : وأنت يا خديجة.. ماذا تقولين؟

خديجة: تجاوزت الحد يا أحمد.. أنا أيضاً، لا أريد أن يدخل هذا المنكر إلى بيتي.

أحمد: ليكن.. سأدعكما تتمرغان في الذل والبحث عن الأمان. التتار يدخلون المدينة، وصهري العزيز يخفي الحرير.

(يخرج أحمد بينما يتبادل مروان وخديجة نظرات مشدوهة، تقترب خديجة، وتمسح بحركة حنونة على شعره)

خديجة: أرجوك لا تزعل .. إنه دائماً متهور، ودمه فائر.

مروان: لم أزعل.. ولكني خائف عليه. سيهلك نفسه إذا استمر على هذا النحو. ساعديني . أين نخبئ الحرير؟

خديجة: سنوزعه في أكثر من مكان.

مروان: سيكون ذلك أفضل.

(طرق على الباب)

صوت امرأة: يا جارة .. ألديك حنّاء؟

خديجة: (من وراء الباب) نعم.. لدي قليل منها.. أتريدين؟

صوت امرأة: أأنت وحدك في البيت؟

خديجة: لا.. رجلي هنا.

صوت امرأة: طيب.. المهم أن تخضبي اليوم بالحناء.. لا تؤجلي ذلك إلى الغد. عندما يذهب رجلك. سآتي وأخبرك كل شيء.

مروان: ماذا يعني هذا!

خديجة: لا أدري.

مروان: وما المانع؟! نعم، خضّبي . من أجل البشارة. يجب أن تخضّبي. وهذه الليلة.

(يقترب منها، يضمها، ثم يتهاوى ويضع وجهه على بطنها، فيما تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: وفي 23 منه، خرج الوفد إلى تيمور، وكان بينهم ابن مفلح وابن النابلسي، وابن العز، ومحمد بن أبي الطيب، ودلامة التاجر، وقد حملوا معهم القماش، والفرو، والشواء، والحلواء، وكل ما يُهدى، من كل صنف تسعة على عادتهم. وقالوا إن التقدمة أعجبت تيمور، وإنه كتب أماناً لأهل دمشق جاء فيه، فليعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم. واتفقوا أن يستخرجوا له من أهل دمشق ألف ألف دينار، وأن يحملوا إليه كل ما تركه السلطان وعساكره من أموال، ومماليك ودواب. وقد أكثر الوفد من الثناء على تيمور والكلام على محاسنه وفضائله. وفيه أيضاً، أصاب نساء دمشق، مسّ الخضاب بالحنّاء، فكل امرأة أو بنت أرادت أن تخضب. وفُقدت الحناء من الأسواق، وجرت في بعض الملحات عراكات.

وسألت عن السبب، فعلمت أن عاتكة الباعونية رأت في المنام أنه جاءها ملك الجان. عمود من الدخان ظل يترجرج ويتلوي حتى جمد فإذا هو جني أطول من مئذنة الجامع، وقال لها: لا ترتعبي مني، بل ارتعبي إن لم تفعلي ما آمرك به. قولي لبنات ونساء الشام أن يخضبّن بالحناء، وإلا جرى عليهن ما جرى على نساء حلب من جند تيمور، ثم لمس صدرها، وابتعد متلاشياً كأنه غيمة. وكان هذا سبب تزاحم النسوان على الحناء.

والله علام الغيوب.

وفيه، هطل مطر خفيف.

ومازال بردى يجري على العادة.

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (8)

(دار ابن خلدون في المدرسة العادلية، ابن خلدون يملي، وشرف الدين يكتب بشيء من الضيق، كما ان على وجهه أمارات امتعاض لا يحاول اخفاءها).

ابن خلدون: ومدّ يده إليّ فقبّلتها، وأشار بالجلوس ، فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار، فأقعده يترجم ما بيننا، ففاتحته، وقلت أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة، أتمنى لقاءك، فقال: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران.. الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف، فإني من أهل العلم.
شرف الدين: (يضع الريشة باحتجاج) ألست يا سيدي، من يقول: إن من أسباب وقوع المؤرخين في الكذب، التقرب لأصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر! أيمكن أن يقال عن جزّار وقاطع طريق، إنه أعظم ملوك الدنيا منذ آدم؟
ابن خلدون: ما خطبك يا شرف الدين! إن لجاجك بدأ يضايقني فعلاً، أتظن أني أغفل عن هذا النقص، وأنا الذي فندت أخطاء المؤرخين وأكاذيبهم! هذه مسودة، وهناك جملة ناقصة. أتريد أن تعرف ما هي هذه الجملة؟
شرف الدين: وما هي هذه الجملة يا سيدي؟
ابن خلدون: (بحدة) هذه الجملة هي، وزوّرت في نفسي كلاماً أخاطب فيه، وأتلطف بتعظيم أحواله وملكه، ولكني فضّلت أن أضمر العبارة لأني لا آمن أن تقع هذه الأوراق في يد أحد من أمرائه أو رجاله. ومع هذا يجب ألا تنسى أن دول الشرق كلها ركعت أمام سطوته وخصعت لسلطانه. لدي عمل كثير. وأرغب ألا تقاطعني. أين وصلنا؟
شرف الدين: فإني من أهل العلم..
ابن خلدن: وأما الأمر الثاني مما يحملني على تمني لقائك ، فهو ما كنت أسمعه من المنجمين ، والأولياء بالمغرب عن ظهور ثائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي يتغلب على الممالك، ويقلب الدول، ويستولي على أكثر المعمور. وقد أكد لي الخطيب أبو علي بن باديس، وكان ماهراً في هذا الفن، أن أخبار هذا الثائر ستنتشر عام سبعمائة وأربعة وثمانين. وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زرزر اليهودي. أما شيخي، إمام المعقولات محمد بن الآبليّ، فكان يقول متى سألته عن ذلك: أمره قريب، ولا بد لك إن عشت، أن تراه. وأين مولدك؟ فقلت: بالمغرب الجوّاني. فقلت: الداخلي أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه ، فالأقرب إلى هنا يدعى برقة وأفريقية، أما المغرب الأوسط فإنه تلمسان، والأقصى هو فاس ومراكش وهو معنى الجواني. فقال: لا ينفعني هذا، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها، وجباله وأنهاره، وقراه وأمصاره، ومسالكه حتى كأني أشاهده. فقلت : "يحصل ذلك بسعادتك".
شرف الدين: (واجماً) أتنوي فعلاً أن تصف له المغرب ومسالكه؟
ابن خلدون: نعم.. وسأبدأ العمل فوراً. هاتِ القرطاس وحضّر لي كراساً.
شرف الدين: ولكن هل تقدّر يا سيدي، خطورة عملك هذا!
ابن خلدون: وما خطورته!؟ إنه عمل علمي، وإني خير من يؤديه.
شرف الدين: أتستخفّ بي يا سيدي؟ كيف يمكن أن تعدّه عملاً علمياً ولا شيء آخر!

ابن خلدون: وماذا يكون إذن؟

شرف الدين: أأنا من سيشرح لك ماذا يكون؟! أأنا من يدلّك على دلالته ومغزاه؟1 إنك تقدم له يا سيدي، المخطط الذي يحتاجه لغزو بلادك.

ابن خلدون: إذا كان سيغزو المغرب، فإنه لن يعدم وسيلة، وحوله ما حوله من الخبراء والكشافة لمعرفة مسالك المغرب، وأمصاره.

شرف الدين: ولكن هذا لا يبرر أن تساعده في هذه المهمة. أن تتواطأ معه وتقدم له البلاد عارية ومكشوفة. هذه يا سيدي، وكنت أتمنى أن يُقصّ لساني قبل أن ينطقها، إن هي إلا خيانة.

ابن خلدون: أَقصِرْ، وإلا جفوتك. تيمور نفسه يكلّفني عملاً، فهل أستطيع أن أقول له لا! وهو في النهاية، عمل علمي والكراسات التي سأعدها لا تملك جيوشاً ومدافع، ولا تستطيع أن تنظّم غزواً أو قتالاً.

شرف الدين: هذه الكراسات العلمية ستكون الدليل الذي يقود العساكر، وينظم عزوهم.

ابن خلدون: إنك تخيّبني يا شرف الدين. لن تغدو عالماً إذا ظلّت تكبّلك التوجسات والوساوس.

شرف الدين: وهل يقتضي العلم أن أفقد احترامي لنفسي؟ وهل يقتضي العلم أن أتملّق وأخدم كل سلطان مهما انحطّت خصاله؟! وهل يقتضي العلم أن أبيع أهلي وبلدي لقاء منصب أو وجاهة؟! في القاهرة لك وطن، وأهل وأصدقاء، وفي المغرب لك وطن، وأهل وأصدقاء. فهل يمكن أن تتنكر لهم جميعاً، وأن تقدم للعدو المخطط الذي يحتاجه، كي يخرب الأوطان، ويدمر الأمصار، ويهلك الأهل والأصدقاء؟ّ هل تتحمل يا سيدي أن تمشي في ركابه وهو يغزو القاهرة، وتونس، وتلمسان وفاس؟

ابن خلدون: أتريد مني أن أذرف الدموع؟ ليست لدي دموع. وهذه البلاد التي تنوح عليها مهترئة، ومغزوّة بلا غزو. هل أتحمل السير في ركاب تيمور؟ نعم.. ولم لا؟ أريد أن أعرف وأسجل. أريد أن أستكمل خبرتي، وأن أزيد علمي إتقاناً واكتمالاً. لقد سرت في ركاب أمراء وسلاطين لا يستحقون أن يكونوا جزمة لتيمور. ولو حصرت نفسي في الوساوس، وهذه الترهات العاطفية لما راكمت خبرة، ولما وضعت علماً لم يسبقني إليه إنسان في الخليقة.

شرف الدين: إنك تجعلني أخاف من العلم. هذا العلم البارد الذي يبرر كل وسيلة، ويلتقط مقوّلاته من خراب أوطانه، ومذابح قومه وأهله. هذا العلم الذي لا يبالي بالأنين، والذي يحتقر الدموع، ويتورط بالخيانة دون وسواس. هذا العلم يا سيدي، لا نحتاجه، ولا يلهمنا إلا الأسى والخوف.

ابن خلدون: متى تدرك أيها الشاب ، أن العلم هو العلم، وأن النعوت وتحيّزات الأخلاق تفسد العلم، وتملؤه بالضلالات؟

شرف الدين: لا أريد علماً هو العلم اذا كان لا يشغله مصير وطني، وشعبي، ومستقبلي.. أعتقد يا سيدي أن علينا أن نفترق.. ما تعلمته منك كثير، وإني أعترف لك بالجميل، لكني أعتقد أن علي أن أسلك طريقاً أخرى في هذه الحياة.

ابن خلدون: ماذا تعني بالافتراق؟

شرف الدين: ساحمل أغراضي، وأغادرك يا سيدي.

ابن خلدون: إلى أين؟ ومن يحميك في هذه المدينة؟ لا تكن غرّاً يا شرف الدين. وهذا الجدال لم يضايقني ، ويمكن أن ننساه.

شرف الدين: (وهو يعدّ أمتعته) لا يا سيدي.. لن أستطيع أن أنساه، وعلى كل كانت الفكرة تراودني وأنا أنتظرك في معسكر تيمور. سأغادر المدينة وأنضمّ إلى أهل القلعة.

ابن خلدون: القلعة! هل أنت مجنون؟ حين كنت في حضرة تيمور، استدعى المهندسين والقواد ووضعوا خطة لاقتحام القلعة وتدميرها.

شرف الدين: سمّني غبياً أو أحمق. أفضل أن أموت معهم على أن أبقى في المدينة.

ابن خلدون: لا تكن متهوراً. مهما كان فأنا مسؤول عنك.

شرف الدين: أعتقد أني بلغت سن الرشد يا سيدي. وذهابي لن يؤثر عليك، ستجد كثيرين يتمنون خدمتك..

ابن خلدون: أتحدث من أجلك، ولا أفكر الان بالخدمة.

شرف الدين: سأتدبر أمري (يباعد بينه وبين دوره) ماذا سيقول عنك التاريخ يا سيدي؟

ابن خلدون: (مباعداً بينه وبين دوره) لن يذكر التاريخ إلا العلم الذي أبدعته، والكتاب الذي وضعته. أما هذه الأحداث والمواقف العابرة، فلن يذكرها أو يهتم بها إلا موسوس مثلك، ومثل كاتب هذه الرواية.

شرف الدين: والآن وداعاً يا سيدي.

(يخرج شرف الدين، يظل ابن خلدون، واجماً وساهماً خلال لحظات قصيرة، ثم ينهض فجأة، ويأتي بالقرطاس ، ويبدأ الكتابة)

ابن خلدون: في وصف بلاد المغرب..

(تتلاشى الإضاءة)

المنمنمة الثالثة
آزدار أمير القلعة
أو
المجزرة

تفصيل (1)

(في الجامع الأموي، أمراء تتار وعساكر يقصفون في الجامع، ومعهم بعض بنات الهوى. يقف ابن العز على منبر الخطابة يلقي خطبة الجمعة، أفراد قلائل من المصلّين يبدون في حالة ارتباك، يختلسون النظر إلى المصلين يبدون في حالة ارتباك، يختلسون النظر إلى التتار، ويلزّون بعضهم على بعض، ثم ينسحب أفراد منهم خلسة من الجامع).

ابن العز: وأوصاكم الله بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة أولى الأمر منكم. وطاعة أولى الأمر من الإيمان، فلا تجادلوهم، ولا تخالفوهم، ولاتكونوا كالسفهاء والمستكبرين، فتحقّ عليكم اللعنة، ويحق عليكم غضب الله.
وبعد الطاعة أوصيكم بالوفاء. فإن المسلم إذا أبرم عقداً، يجب أن يحترمه. وإذا أعطى عهداً، يجب أن يلتزمه.
ومن حقيقة الإيمان أن يكون الإنسان عند الكلمة التي أعطاها، والعهد الذي قطعه على نفسه، إن الإسلام يوصي باحترام العقود، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تضمنتها. وفي الحديث "المسلمون عند شروطهم" . وقد بيّن الله عز وجل أن الغدر ينزع الثقة، ويثير الفوضى ويمزّق الأواصر فقال "ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً" وقال سبحانه وتعالى: "وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا" فعلينا الوفاء بالعهد الذي عاهدنا، وعلينا تنفيذ العقد الذي أبرمنا، لأن الوفاء واجب، ولأن في الوفاء نجاتكم ونجاة أبنائكم وأحفادكم. (يرتفع صخب الأمراء، ويكرعون الخمر بكثير من المجون والفجور)
ابن العز: (يبدو عليه الحرج فيسرع في إنهاء خطبته) اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، لا تدع لنا ذنباً إلاغفرته، ولا همّاً إلا فرّجته، يا أرحم الراحمين. اللهم وفّق وبارك سلطاننا محمود قان.
أصوات: آمين.
ابن العز: اللهم وفق الأمير تيمور، وافتح له على العبادة. اللهم انصره على أعدائه.
أصوات: آمين.
التتار: (بأصوات ثملة ومشوشة) آمين.. ايمين .. آمن.
ابن العز: اللهم اجعل التوفيق حليفه كيفما اتّجه، وكيفما سارت خطاه. اللهم وسّع ملكه، واجعل المشرق والمغرب بستانه. اللهم أضعف أعداءه وبدّد عزيمة من يقاومه. اللهم ثبّت أمر ولي العهد محمد بن تيمور.
أصوات: آمين.
التتار: (صيحات استحسان) آمين.. عظيم.. شيخ فهيم..
ابن العز: اللهم أكثر عليه الخير، واجعل السعد نجمه، واليمن طالعه. اللهم وفّقهم جميعاً إلى ما فيه خير العباد والبلاد.
(تمتمات آمين وصيحات استحسان . وفيما ينسل المصلون خارج المسجد، يأتي أحد الأمراء متطوحاً وبيده إبريق فضي مليء بالخمر، يمد يده إلى ابن العز ويجره عبر الجامع إلى مجلسه)

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (2)

(ريحانة قرب باب الدار، تحمل صرة مليئة بالطعام، وتتلفّت حذرة)

صوت شعبان: (يتناهى مقترباً) يمه.. يمه.. يمه.. جوعان.
(تفتح ريحانة الباب، وتومئ إليه. يقترب، ينظر إليها بدهشة، تمسكه بذراعه. وتجره إلى الداخل، ثم تغلق الباب).
ريحانة: (تتكلم ببطء شديد وأحياناً تستغرق وقتاً في البحث عن الكلمة) هل أنت جوعان..؟ (شعبان يحملق فيها بلهفة وانفعال) خذ. حملت.. طعاماً كثيراً .. (تفتح الصرة وتبدأ بتقديم بعض الفطائر، يمسكها شعبان بحركة آلية، ويضعها في كيسه مواصلاً حملقته الملهوفة) كلْ .. هل .. تريد .. أن أطعمك.. بيدي؟
شعبان: (بصوت مفجوع وخافت) يمّه..
ريحانة: سأكون أمك.. هل.. هل .. تذكر .. السفرجلة.. كانت أطيب .. فاكهة .. ذقتها.. في .. حياتي..
(تأخذ شيئاً من الطعام، وتضعه في فمه، يأكل بصورة آلية، بينما تبدأ الدموع تتساقط من عينيه) لماذا.. تبكي؟
شعبان: يمة.. يمه.. تتر..
ريحانة: كلهم.. تتار.. يا .. شعبان.. قومنا.. تتار.. والتتار.. تتار.. كلهم تتار. ونحن .. أنا .. وأنت.. لن تَفْرِقَ علينا.. ذبحونا.. ولن تَفْرِقَ علينا.. كلهم.. كلهم.. تتار.. وأنا.. وأنت.. غريبان...
شعبان: (وهو يشهق بالبكاء) يمه. هاتي صدرك يمه.
ريحانة: أنت.. فقدت أمك.. وأنا .. فقدت.. أبـــ.. أبـــ .. أبي .. باعني .. أبـــ .. أبي واختفى.. لست.. زعلانة.. منه.
شعبان: (بحنان) يمه.
ريحانة: (تمسك رأسه برفق وتسنده إلى صدرها) تعال.. ارضع .. كلهم .. كلهم تتار.. وأنا .. وأنت.. غريبان.

(شعبان يدسّ رأسه في صدر ريحانة، ريحانة تمسح على شعره بحنان فيما تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (3)

(ركن منزوٍ على أسوار القلعة. أمير القلعة آزدار ومعاونه شهاب الدين).

شهاب الدين: أرجوك أيها الأمير أن تتوخى الحذر. لا يجوز أن تظل في مقدمة الأسوار. البارحة لولا تروس الرجال، لغربلتك النبال.

آزدار: هل تريد أن أختبئ في الديوان؟ كيف أقود الرجال إن لم أتقدمهم في أوقات الشدة والخطر؟
شهاب الدين: لا تحتاج جدارتك أو جسارتك لتأكيد، ولو أصابك مكروه، فستقصم ظهورنا جميعاً.
آزدار: دعنا من هذا.. نحن الآن جسد واحد، وكلنا مقاتلون دون درجات أو مراتب. لماذا تظن أنهم أوقفوا هجومهم.!
شهاب الدين: لعلها الخسائر الفادحة التي تكبدوها. ألم ترهم كيف تزايد سعارهم آخر النهار! كانوا يدوسون على قتلاهم ويندفعون تحت وابل النبال آملين أن يصلوا إلى حافة الخندق. أعتقد أنهم يدرسون الآن خططاً بديلة.
آزدار: أدخلوا أعداداً كبيرة إلى المدينة، وأخشى أن يتحولوا إلى الهجوم علينا من الداخل، من منطقة الجامع وبابا الجابية.
شهاب الدين: ذات يوم، اقترحت عليك أيها الأمير..
آزدار: (مقاطعاً) أعرف.. أعرف.. ولكني لم أجد الاقتراح عملياً. إن قواتنا لا تكاد تكفي للدفاع عن القلعة فما بالك بالمدينة؟ وعلى كل هذا أمر فات. كيف حال الجرحى؟
شهاب الدين: أكثرهم سيعود إلى الأسوار غداً أو بعد غد. إن ابنة التاذلي بحميتها وبراعتها تداوي الجروح، وتسكن الألم كأنها سحر، أو كأنها نعمة ربانية.
آزدار: رحم الله والدها. كنت أود لو تصون نفسها، وتلازم مساكن الحريم، ولكن دم التاذلي يسري في عروقها. رفضت الانزواء مع الحريم، وأصرت على أن تشارك في هذا الأمر. هل راقبت المصري جيداً؟
شهاب الدين: نعم.. ولم أجد ما يشوبه. إنه لا يهدأ ولا يستقر، ينتقل بين الرجال خطيباً، ومحدثاً، يقوي عزائمهم، ويؤجج غضبهم، وفي اللحظات الحرجة يشاركهم القتال بما يستطيع دون خوف أو حذر.
آزدار: خفت أن يكون مدسوساً. بدا لي غريباً أن يترك معلمه. وأن يأتي ليخبرنا ما يدبره تيمور، ويطلب الانضمام إلى مقاتلينا.
شهاب الدين: إنه يشعر إزاء معلمه بالخيبة والمرارة. حكى لي عن الذلّ الذي أحسه حين كان ينتظر معلمه في معسكر العدو. وكيف أدرك أن الحق لا يكون أن يكون متعدداً. وأن عليه أن يختار مصيره بنفسه لأ.. إنه شاب عظيم الهمة والشهامة، وصارت له في قلوب الرجال مودة ومحبة. ولا أدري.. لماذا يتردد الأمير في الإفراج عن جمال الدين بن الشرائجي – أنا متأكد أنه راغب في تعبئة الرجال، والمشاركة في القتال.
آزدار: لا أستطيع أن أفرج عن رجل اتهمه التاذلي وسائر العلماء بالكفر والزندقة.
شهاب الدين: في الظلامة التي رفعها، لا شيء ينمّ عن الكفر. إنه ينذر دمه للجهاد ضد التتار، فلماذا نحرمه الفرصة؟ بل سأقول أكثر من ذلك.. لدينا في سجن القلعة ما يربو على الخمسين رجلاً فلماذا لا نخيّرهم بين القتال والبقاء في السجن؟ أعتقد أن معظمهم سيختارون القتال وباندفاع، وسيحاولون أن يثبتوا أنهم جديرون بالحرية، وأنهم غيورون كالآخرين على كرامة الأمة.
آزدار: نحن يا شهاب الدين رمز النظام، وقلعته الأخيرة. وإن ألغينا السجن، وتغاضينا عن العقوبات، إنما نهدم النظام، في جوهره ومن داخله، نحن الآن الدولة السلطانية. والدولة ينبغي أن تحافظ على أساسها ونظامها في أوقات الحرب. ما قيمة صمودنا إذا هدمنا الحدود، واعتمدنا على المعارضين والمجرمين؟ كيف يمكن أن أضع إلى جوار هؤلاء المقاتلين المفعمين بالولاء والشجاعة، رجالاً ملوثين بالدسائس والأطماع. رجالاً متهمين في ولائهم وفي نواياهم؟ لا.. سيفقد قتالنا كل معنى إذا دمّرنا نظامنا من أجل القتال. سيبقى السجن سجناً، وسيبقى السجناء سجناء، ولن يحمي هذه القلعة إلا رجالها الأوفياء.

شهاب الدين: أحياناً لا أفهمك أيها الأمير، إني أتساءل ما الذي بقي من هذا النظام الذي تتمسك بحرفيته بعد ذهاب السلطان، وهروب العساكر السلطانية! هل يمكن أن يكون كل منا، يقاتل من أجل هدف مختلف؟

آزدار: ما الذي ترمي إليه؟

شهاب الدين: سأشرح لك كيف أرى الأمور. نعم.. إني معجب بك، وإني أشاطرك الرأي بأن القتال قدرنا المحتوم. ولكن يراودني الأمل بأننا نقاتل لكي نبتكر نظاماً جديداً، لا لنحافظ على نظام نعرف جميعاً أنه تداعى وانهار.

آزدار: إننا النظام.. وإننا نقاتل لكي نبرهن أن النظام لم يتداع، وأنه قادر على الصمود والبقاء.

شهاب الدين: أرجو أن يتسع صدر الأمير، وأن يقبل اختلافنا في هذه المسألة. طبعاً كلانا يقاتل دفاعاً عن شرف هذه الأمة. ولكن يحق لي أن أحلم بأن نظاماً جديداً، سيولد من مخاض هذه المحنة.

آزدار: لا يدري أي منا ما الذي سيولد من هذه المحنة. ولكن. لا أتخيل أن يقاتل المرء من أجل دولة في الغيب. إني أقاتل من أجل الدولة التي أنتمي إليها. الدولة التي أعطتني مركزي، وحددت لي مسؤوليتي.

شهاب الدين: ليكن.. لا يهم اختلافنا. كم كان يود المرء لو أن هذه الدولة وهذا النظام، يستحقان قتالاً.

آزدار: هذه شكوك خطيرة قد تؤدي إلى التخاذل.

شهاب الدين: لا.. إن الأمة شيء وإن الدولة أو النظام شيء آخر. إني أستغل رحابة صدرك ، وأصارحك أيها الأمير إني أقاتل من أجل الأمة لا من أجل دولتها أو نظامها.

آزدار: أخشى يا شهاب الدين أن يأتي وقت أتلفت فيه فلا أجدك إلى جواري.

شهاب الدين: معاذ الله أيها الأمير. لن تفتقدني ما دمت حياً. والرجال لا يحتاجون إلى الأيْمان لتوكيد عهودهم.

آزدار: هذا أملي فيك. ولن يؤثر علينا اختلاف في النظر أو الرأي.

(يأتي شرف الدين راكضاً ولاهثاً)

شرف الدين: سيدي الأمير.. بدأ التتار يبنون برجاً مقابل الأسوار .

آزدار: إذن هذه هي خطتهم.

شرف الدين: عبّأ الرجال المكاحل والنفاطات، ويريدون أن يرموا عليهم.

آزدار: لا.. ليس الآن. هيا بنا يا شهاب الدين.

(يمضون جميعاً على عجل، وتتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: في أوائل جمادى الآخرة، صار عسكر تيمور يدخل إلى المدينة، ويخرج منها كما يشاء. وفي 6 منه، خطب القاضي محي الدين بن العز بالجامع الأموي، ودعا للسلطان محمود قان ثم للأمير تيمور ثم لولي العهد محمد سلطان. وقد أعطي ابن العز قضاء الحنفية، ونظر الأوقاف، وأخذ المعاليم، وزكاة الأيتام.

(يباعد المشخص بينه وبين دور المؤرخ)

يبدو أنه من العسير، أن نجعل مؤرخنا يخفف قليلاً من بروده وحياده. ولكن هل نستطيع نحن أن نكون باردين ومحايدين، ونحن نتهيأ لمشاهد الرعب القادمة. لن نزيّف مقالة المؤرخ، لكن لا نستطيع أن نسرد الوقائع دون شيء من التعاطف وقليل من الحس الفاجع.

(يعود إلى دوره)
وفيه كَمُل المال الذي فرضه تيمور، وهو ألف ألف دينار، فحمله ابن مفلح وأصحابه إلى تيمور، ووضعوه بين يديه، فلما عاينه، غضب غضباً شديداً ولم يرضَ به، وقال إن المبلغ الذي طلبه هو عشرة آلاف ألف دينار.
ولم يجد ابن مفلح بدا من الالتزام به.
وعادوا إلى البلد، وفرضوه على الناس، فجبوا أجرة مساكن كلها عن ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان، من ذكر وأنثى ، وحرّ وعبد، وصغير وكبير بعشرة دراهم.

(مشاهد متلاحقة حول تحصيل المال وما كان يجري على الناس. يمكن أن يستخدم فيها التشخيص وخيال الظل أو أية وسيلة أخرى مناسبة).

تفصيل (4)

(ابراهيم الملكاوي وياسمين)

ابراهيم: (وهو يمد لها كيساً صغيراً) حملت لك بعض المال الذي ادّخرته.
ياسمين: لم يبق شيء.. تصور.. ألزموني أن أدفع عن جمال الدين وهو في سجنه. بعت مصاغي، وكل ما في بيتي، وأنا وحيدة في هذه المحنة.
ابراهيم: لا.. لن تكوني وحيدة. وهذا المال سيساعدك على تجاوز هذه المحنة.
ياسمين: وأنت.. كيف ستدبّر أمرك؟
ابراهيم: لا عليك.. ما زالت لدي بقية.
ياسمين: لا أريد أن تؤذي نفسك.
ابراهيم: لا.. لا تقلقي عليّ. خذيها فقط.
ياسمين: (وهي تتناولها) أمازلت غاضباً وحزيناً؟
ابراهيم: لندع ذلك الآن.
ياسمين: أشعر بالوحدة. إني خائفة، ولا أعرف كيف أحفظ نفسي في هذه الأيام المظلمة.
ابراهيم: لا.. أريدك أن تكوني شجاعة.. وأريد أن تحافظي على نفسك.
ياسمين: ألا تبقى؟
ابراهيم: حافظي على نفسك (يخرج)
ياسمين: ذاك في السجن، وهذا يتركني، وأنا .. كيف أحافظ على نفسي.

مؤرخ قديم: وبدأ استخلاص الأموال والعقوبة. وعمّ العذاب جميع الناس، وكان ابن العزّ وابن مفلح قد جمعا حولهما أراذل الناس، كصدقة الجابي، وابن التكريتي، وتفرّقوا حارات دمشق، وتباروا في الظلم والقسوة. وكانوا يأتون بالواحد، ويقولون: عليك عشرة آلاف.

ابن العز، ابن مفلح، حراس، ومشنقة.

ابن العز: ستدفع يعني ستدفع.
الرجل: هل أقصّ من لحمي؟ أقسم إني لا أملك شيئاً.
ابن العز: بعْ ما لديك.
الرجل: وهل بقي ما يُباع! لم يبق إلا البيت، ولا أستطيع أن أبيعه.
ابن مفلح: لا تضيع وقتنا. كل هذا لا يفيد.
الرجل: لن أدفع.
ابن العز: اشنقوه.
(يندفع حارسان ويمسكان بالرجل، ثم يرفعانه إلى المشنقة.. أنّة ، وخوار مفزع)

مؤرخ قديم: وبدا من الناس في حق بعضهم بعضاً، من المرافعات أنواع قبيحة.
وبدا وكأن الخير مات فيهم، وفاضت الشرور في نفوسهم، فجروا بالفساد بعضهم على بعض، وصار كل منهم يتقرب من الذين يستخلصون الأموال بالنميمة على الآخرين. وكل واحد عنده ضغينة من قريب أو جار، استغلّ الوقت لكي ينتقم منه، ويعرّضه للعقوبة والبهدلة.

- **مروان ودلامة**

مروان: أعرض عليك قطعاً من الحرير نسجتها بروحي. إنها قطع لن تجد لها ميلاً في دمشق.
دلامة: يا مروان، يا حبيبي.. أنا لا أعرف أن الروح تنسج. هذه قطع من القماش، ولن أدفع فيها إلا السعر الذي تعلمه.
مروان: إنك تبخسني حقي. إنك لا تدفع عشر ثمنها.
دلامة: وأنا لا أجبرك على البيع.
مروان: أنت تعرف حاجتي.
دلامة: كل الناس في هذه الأيام محتاجة.
مروان: طيب زِدْها قليلاً.
دلامة: لن أزيد درهماً واحداً.
مروان: يا الله.. ما الذي حدث لنا! ألم تبقَ شفقة؟ ألم تبقَ نخوة؟ إنك تنهبني يا دلامة..
دلامة: اسمع.. لست قاضياً لك. انظر.. هناك كثيرون ينتظرون للبيع والشراء. أنا لا أجبرك على شيء . تريد أن تبيع، أهلاً وسهلاً. لا تريد أن تبيع، مع السلامة.
مروان: ماذا أفعل؟ إني أبيع يا دلامة.. إني أبيع..

مؤرخ قديم: وصارت العروض تباع بأبخس الأثمان، وفقد الناس القوت.
: ومن يوم هروب السلطان، لم يرَ أحد خبزاً في فرن إلا اذا كان بيتياً. ولا يوجد القمح والشعير إلا بندرة، فإنهم لما تسلّموا البلد، ختموا على جميع المحاصيل التي بالمدينة للغائبين والحاضرين. وكان القمح يباع كل كيل بـــ "360" ثم وصل في مدّة يسيرة إلى "1480" للكيل الواحد.
واستمر الأمر على ذلك، ولا يوجد ولا يجسر أحد على الاعتراض لئلا يصيبه ما أصاب الشيخ ابراهيم الملكاوي.

- **(ابن العز، ابن مفلح، حراس، ابراهيم الملكاوي)**

ابراهيم: لا يوجد شيء.
ابن العز: يوجد البيت وما فيه.
ابراهيم: لن أدع واحداً منكم ينجّس بيتي.
ابن العز: أنحن أنجاس يا ابن الملكاوي؟!

ابراهيم: إنكم أنجس من النجاسة. يا للعار! أأنتم العلماء الذين وضعوا دمشق وأهلها أمانة في أعناقكم! بعتم المدينة، وأجّرتم دينكم، ونفوسكم وهذه العمائم التي تعلو رؤوسكم للتتار. بأي وجه تلقون الناس وبأي وجه ستلقون ربّكم!
ابن العز: أتسبُّنا يا ابن العاهرة؟!
ابن مفلح: إنك تسعى إلى حتفك يا ابن الملكاوي.
ابراهيم: في بلد، أنتم رعاتها وأولياء الأمر فيها، الموت عبادة. هل أسبّكم حقاً! وهل يُسبُّ رجال خلوا من الذمّة والنخوة والدين؟! بعتم أهلكم من أجل مكسب خسيس، وتتبارون الآن لنيل حظوة عند عدونا.. والله لن تنالوا إلا الازدراء وسواد الوجه في الدنيا والآخرة.

(يدير ظهره لهم، ويدخل إلى البيت).

ابن العز: (غاضباً ومزبداً) احرقوه واحرقوا بيته.. تحركوا.. أوقدوا النار.. أريد أن أراه وهو يشوى..
(يشعل الحراس النار في بيت ابراهيم الملكاوي).
أصوات: يا لطيف..
- بيت الملكاوي يحترق..
- أحرقوا بيت الملكاوي..
- يا ناس.. حريق في بيت الملكاوي..
- لا.. هذا لا يطاق.

صوت ياسمين: يا ابراهيم. يا ابراهيم.. أعطاني كل شيء وقرر الموت. احترق ابراهيم. مات ابراهيم.. لم يبقَ لي شيء....

مؤرخ قديم: واستمر الحال حتى كَمُل المال. وهلك الفقراء، وعلت الأغنياء. وبقي الإنسان لا يقدر يمشي من الموتى ولا يدفن أحد أحداً.
كل هذا وأمير القلعة ممتنع بها، وتيمور يحاصرها، وقد نصب حولها مجانيق ، وحدّافات، ومدافع كثيرة ترمى عليها.
وفيه، هطلت أمطار غزيرة، وزاد الماء في بردى زيادة كبيرة.

تفصيل (5)

(في القلعة ، سعاد، وشرف الدين وهي تضمد له جرحاً أصابه في ذراعه)

سعاد: أيؤلمك..؟ (يهمّ شرف الدين في الكلام، ثم يحمر ويسكت). لماذا لا تجيب؟.

شرف الدين: اخشى أن تزعلي لو أجبت.

سعاد: ولِمَ الزعل؟!

شرف الدين: هذا شعوري.. يداك كالبلسم الشافي.

سعاد: هل تتودّد إليّ؟!

شرف الدين: هذا ما شعرت به فعلاً.. سكن الألم فجأة.

سعاد: ليس الجرح خطيراً على كل حال. اخترق السهم اللحم، ولم يمس العظم. بعد يومين أو ثلاثة سيندمل الجرح. أتعلم.. فوجئت حين علمت أنك جئت إلى القلعة!

شرف الدين: كان القرار صعباً، ولكن حين اتّخذته، شعرت أني نضجت ، وصرت رجلاً.

سعاد: هل شجّعك وجودي هنا على المجيء؟

شرف الدين: لا أدري.. ربما .. نعم، أكنت أفكر فيك. وكانت خيبتي بابن خلدون شديدة الوقع عليّ.

سعاد: أتعلم.. حمّلت مجيئك دلالة كبيرة. أيقنت أن التاذلي لم يمت مجاناً.

شرف الدين: ماذا تقولين! سيبقى ذكر التاذلي حياً في الأذهان أجيالاً بعد أجيال.

سعاد: كم نستطيع الصمود في رأيك؟

شرف الدين: أحرقنا الأبراج الثلاثة التي بنوها، بما احتشد فيها من العساكر. ولم يستطيعوا حتى الآن أن يلمسوا حافة الأسوار.

سعاد: وأبراجنا تهدم معظمها. والقذائف تنهمر علينا كالمطر الغاضب.. رأيت البارحة مناماً غريباً.. كنت في مدينة ساحلية. لعلها طرابلس أو بيروت، والأرجح أنها بيروت. وكنّا محاصرين كحالنا هنا، ولكن الوقت صيف، والشمس ساطعة وحارة. ورأيت طيورا غريبة تحلق فوقنا، طيوراً لها هدير، كأنها من فضة أو حديد. وكانت ترمي فوقنا كتلاً نارية مرعبة، تدوي، وتدمر، ثم وجدت نفسي أصعد إلى سطح مرتفع، وتطلعت حولي، فإذا نحن محاطون بأحياء بنيت على هضاب. وكان الناس كلهم يحتشدون على الأسطحة، ويشيرون نحونا ساخرين وشامتين، وحضر أبي إلى جواري، وقال لي كئيباً: "أتعرفين هذه الأحياء! فقلت له: لا. فأخذ يسمي الأحياء واحداً ، واحداً. هذا عرب نعير، وهذا عرب بني حارثة، وهذا عرب الشام، وهذا عرب مصر والقاهر، وأولئك من عرب قحطان، وأولئك من عرب أفريقية".

كانوا جميعاً يتفرجون ولا يبالون، وظلّلنا طائر كبير يهدر، وصرخت ، ثم صحوت مقهورة وحزينة. كان مناماً موحشاً ومخيفاً.

شرف الدين: سبحان الله.. كأن الحق كشف لك الواقع وأحواله! كثيراً ما أتساءل، أيمكن أن تتهاوى الأمة إلى هذا الدرك من التبلّد والخذلان؟ من العار أن تتحمل هذه القلعة الوحيدة كرامة أمة تترامى على قارتين. إننا

نفر قليل يحاول أن يصون شرف البلاد كلها. حين أنظر من الأسوار، وأفكر في كل هؤلاء العرب، أعجب كيف يستطيعون أن يأكلوا، ويناموا، ويتابعوا لهو الأيام، غير عابئين بما نكابد، ونقاسي! أيظنون أن حصارنا لن يطالهم؟! أم يظنون أننا كبش الفداء الذي سينقذهم! ستكون الكارثة كبيرة إن لم ينتبهوا من غفلتهم قبل فوات الأوان.

سعاد: أحسب أنك أكثر يأساً وحزناً مني.

شرف الدين: لا.. لست يائساً. قال ابن خلدون، ولعله محق، إننا نعيش زمن الاضمحلال. ولكن إذا لم يعمل المرء شيئاً في مثل هذا الزمن، ففي أي زمن سيعمل؟! سألتِ كم سنصمد! وأقول لك: إننا سنصمد حتى يتغير شيء في هذه الأمة، لا بد أن يتغير شيء وإلا فقدنا حقنا في الوجود. لا أدري.. أشعر أن هذه القلعة التي بدأ يشحّ فيها الغذاء والماء، ستكون هي الصيحة التي توقظ الأمة من الغفلة.

سعاد: هل تحبني؟

شرف الدين: يالله! كيف تستطيعين أن تسألي هذه الأسئلة؟

سعاد: أتعني أني بلا حياء؟!

شرف الدين: لا.. لا.. ولكنك تفتحين خفايا نفسي بالسهولة التي تفتحين بها كتاباً.

سعاد: لا تدع الماء يتسرب إلى الضماد. واعتنِ بنفسك.

شرف الدين: هل تذهبين!

سعاد: سأمرّ غداً لأبدل الضماد.

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: وفيه، وقع مطر كثير جدا مع رعد وبرق، وسقط بَرَد بقدر البندق بكثرة زائدة، حتى صارت الأرض بيضاء من كثرته. كل ذلك في ساعة واحدة لم يعهد مثلها.

وصار تيمور لا يهتم إلا بالقلعة وحصارها. وحين أعياه الأمر، طلب القضاة والأعيان، وقال لهم: "سمعت أن في المدينة طريقاً إلى القلعة تحت الأرض" فقالوا: "والله ما سمعنا بهذا ولا نعرفه، فقال: "تكذبون أنتم وآباؤكم وأجدادكم عمرهم في دمشق، وما تعرفون طريقاً إلى القلعة.. أنا ما أعرف . إلى ثلاثة أيام إن لم تبصروا طريقاً أعبر به إلى القلعة، أو ينزل نائبها ويسلم، عبرت وحاصرت من الداخل. وما أقدر أن أردّ العسكر عما تفعل، وتخرب البلاد".

وعندما عادوا إلى المدينة، كانت وجوههم مسودة من الخوف والكمد واجتمعوا، وضربوا الاخماس بالأسداس، ثم استقر الرأي على أن يرسلوا الشيخ شمس الدين بن النابلسي، ومحمد بن أبي الطيب إلى نائب القلعة.

واتجهوا جميعاً، ووقفوا تجاه الباب الذي من المدينة، وأخذوا بالصياح فدلّوا من القلعة سرياقاً مربوطاً بحبال، ورفعوا ابن النابلسي وابن أبي الطيب.

وبعد المطر والبَرَد ، فاض الماء في بردى، وغمر ما حوله على الضفتين.

تفصيل (6)

(على أسوار القلعة. الأمير آزدار ومعاونه شهاب الدين، وابن النابلسي ومحمد بن ابي الطيب. حراس).

آزدار: ماذا تبغون؟

ابن النابلسي: (متذللاً ومتصاغراً) أيها الأمير.. جئنا باسم أهلك وأبناء بلدك، نرجوك أن تحقن دماءهم، وأن تسعفهم على زوال هذه الغمة.

آزدار: ألم يحقن دماءكم الأمان الذي اشتريتموه من تيمور؟

ابن النابلسي: تقلب علينا أيها الأمير. إنه غاضب جداً، وسيخرب البلد إن لم تشفق علينا.

آزدار: ماذا تجديكم شفقتي؟

ابن النابلسي: أقصد.. لا شك أنك بلغت في البطولة ذروة لن يصلها أمير بعدك، وذكرك سيتغنّى به الأحفاد وأحفاد الأحفاد، ولو طاوعتنا وسلّمت الآن، فستضيف إلى الشجاعة مأثرة المروءة.

آزدار: هل جئت تطلب مني الاستسلام؟

ابن النابلسي: لن يضير الاستسلام شهرتك، وستنقذ أهلك من القتل، وبلدك من الخراب.

آزدار: أتريدون أن أشاطركم الخزي الذي تتمرغون فيه؟ أهذا ما تطلبونه؟ طوال هذا الحصار لم تلتفتوا إلينا، ولم تقدّموا لنا أي عون أو تعاطف، ومع هذا تأتون بكل عين وقحة وتطلبون منا أن نستسلم!

ابن النابلسي: أيها الأمير.. إننا نحمل إليك ضراعة أهلك ومدينتك. وإن قبلت ، فستزين شجاعتك بحلية إضافية هي الشهامة.

آزدار: ماذا حل بكم؟! هل فقدتم كل حياء؟ هل وضعتم جلود مؤخراتكم على وجهكم؟! كيف تطلبون منّي أمراً شائناً كهذا.!

محمد : أيها الأمير.. إنك تتلاعب بمصير مدينة.

آزدار: أأنا الذي أتلاعب بمصير المدينة أم أولئك الذين تراموا على حذاء العدو، ويلعقونه ، ويسلمون له أرواحهم وأموالهم؟!

محمد: ربما لن يعجبك كلامي، لكن ألم يخطر لك أيها الأمير أن تتساءل عمّن رمانا تحت قدمي العدو؟. تقول إننا بلا حياء، ولكن من الذي قتل حياءنا وبدد عزمنا؟! أليس هو السلطان الذي تحمل رايته؟! أليس هو ذلك الغلام المشغول بذَكَره وخمره. والذي فرّ بعساكره دون أن يقول لنا كلمة، أو يترك لنا تدبيراً أو خطة؟! وأنت.. أنت أيها الأمير ألم تقتل حياءنا، وتبدد عزمنا قبل مجيء السلطان وهروبه الشائن؟! ألم تحرمنا السلاح حين طلبناه؟1 ألم تجعلنا أغراباً في مدينتنا لأننا نخالفك الرأي، ولأننا لم نكن نوالي هذا السلطان الغلام، وما آلت إليه الدولة السلطانية؟! تقول إننا فقدنا الحياء، ودفعنا من ظهورنا للركوع أمام العدو. حتى هذه اللحظة لي في سجنك أصحاب وأقارب، وكل ما اقترفوه هو أنهم يخالفونك الرأي، ويرون أن الدولة السلطانية يشلّها الفساد والظلم. ورغم كل شيء جئتك قبل المحنة متطوعاً، وتوسلّت أن نتجاوز الخلافات، وأن نكون قبضة واحدة في الملمات. فماذا كان جوابك؟! سخرت مني ، ورميتني كما تُرمى النواة. لم يكن يهمك إلا رضى سلطانك وطغمة الأمراء حوله.

ابن النابلسي: اقصرْ يا ابن أبي الطيب. جئنا نتوسل ، لا نجادل.

آزدار: لا.. دعه يكشف خبائث نفسه.

محمد: أيها الأمير.. ما أردت الإساءة ، ولكنك ظلمتنا من قبل، وتظلمنا الآن. رميتنا بقلّة الحياء، ولكن هل كانت لدينا الفرصة كي نصون حياءنا.!

آزدار: هذه النفوس التي تربت على الدسائس ما كانت لتنفعني في شيء. ورجل مثلك يمكن أن يبيعنا للشيطان إذا وجد عند الشيطان منفعة. رجل مثلك لا يستطيع أن يحيا إلا في الغدر والخيانة والتآمر. جئتم تطلبون مني أن أسلم، لأن موقف الشرف يفقأ عيونكم الكسيرة، ولأن موقف الشجاعة يقض مضاجعكم الذليلة. إن أمركم لا يعنيني، ولن تمسحوا مؤخرة تيمور بقلعتي، كما مسحتموها بالمدينة.

ابن النابلسي: والله لست باراً بأهلك ومدينتك.

محمد: وما أهمية هذا الشرف الذي تغذّيه من لحم قومك؟ وما قيمة شجاعة ثمنها شعب ومدينة؟ لا.. هذه ليست شجاعة، إنها مباهاة عقيمة. كل ما تبحث عنه أيها الأمير، هو شيء من التميز حتى ولو كان على حساب جبل من الضحايا. لم تفكر يوماً بنا، ولم يشغلك أمرنا. إنك رجل وحيد استغرقك البحث عن شيء من الصيت، ورضى ذلك السلطان الرقيع.

آزدار: أيها الحراس..

محمد: نعم.. يجب أن تنادي الحراس، فأنا أعريك. إني أراك عارياً أيها الأمير، وإني لا أجد في عريك إلا الأنانية والوحدة وجفاف الروح.

آزدار: بل أنا الذي سأعريكم فعلاً. ولن يجد الناس تحت ثيابكم إلا الذل والهوان. أيها الحراس.. جردوهما من ملابسهما..

(يبدأ الحراس تجريدهما من ملابسهما)

ابن النابلسي: (وهو يقاوم الحراس) كن حصيفاً أيها الأمير، هذا لا يفعله إلا المُجّان.

آزدار: ما العمل؟! علّموتونا المجون على كبر يا ابن النابلسي.

محمد: عرّيتنا من ملابسنا، أما نحن فقد عرّينا فيك المظاهر والأكاذيب.

آزدار: الآن.. وأنتما عاريان، الآن.. وبعد أن أخرجت يا ابن أبي الطيب القيح الذي تخبئه في صدرك، سأقول لكما كلمات أريد أن تبلّغوها أهل الشام. إني أتحصن في هذه القلعة، وأكابد هذا الحصار لا لكي أرضي سلطاناً، أو لكي أحمي إمارة. إني هنا لكي لا يموت الشرف في هذه الأمة. إني هنا، لكي لا يُقال في قادم الأيام، اجتاح تيمور هذه البلاد ولم يُوجد من يقاوم، أو يقول لا. إني هنا لكي أُبقي شيئاً من الكرامة لأطفالكم وأحفادكم، حين يأتي الوقت كي يرفعوا الأنقاض، ويفكروا بالمستقبل. إني هنا كي أمنع تيمور من بدء المذبحة التي يحضّرها لكم، ووالله ما إن تسقط هذه القلعة، حتى تعمل السيوف في أعناقكم. ألنا الذي أضحي بالمدينة ياابن الطيب بحثاً عن صيت أو إمارة.. لماذا تظن أن تيمور لم يقتحم المدينة بعد؟

قل لأهل الشام إن صمود القلعة هو الذي يؤمن لهم هذا السلام المؤقت. وقل لأهل الشام إن الذين يضحون بالمدينة هم هؤلاء الذين تحولوا جلاوزة عند تيمور. هؤلاء الذين كانوا في النهب وجمع المال أقسى من التتار. هؤلاء الذين باعوا المدينة من أجل بعض المغانم الهزيلة. قل لأهل الشام إن كنت تجرؤ ، إن الذي ضحى بالمدينة، وذبح أهلها هم علماء وأعيان يبحثون عن المناصب والوجاهة والغنيمة. ابن العز صار قاضي القضاة، وابن مفلح وزير المال، وابن أبي الطيب كاتب السر، وابن النابلسي يلملم مكاسب الأوقاف وأموال البرطيل والشفاعة، وكلهم يتسابقون في خدمة تيمور غير عابئين بما يحل بكم من ويل وشقاء.

قل لأهل الشام إن كنت تجرؤ، ما جئت إليّ لكي تنقذ الشام، بل لكي تنال حظوة عند تيمور. قل لأهل الشام سلام عليكم أيها الناس، إن الأمير يشفق عليكم من سادتكم.. وإن الأمير سيفعل ما يستطيع كي يؤجّل موتكم .. أيها الحراس.. ردّوهما إلى المدينة.

(يضع الحراس ابن النابلسي وابن أبي الطيّب في سرياق، ويدلوهما على جدار القلعة).

ابن النابلسي: هاتوا لنا ملابس وأغطية.

محمد: أيها الناس.. انقبوا القلعة.. هاتوا المعاول والفؤوس وانقبوا القلعة.

شهاب الدين: (من فوق السور) والله إنكم تنقبون قبوركم.

محمد: (وقد حطّ السرياق على الأرض) انقبوا القلعة..

شهاب الدين: والله ستنقبون قبوركم لو فعلتم..

(تتلاشى الإضاءة ، ويرتفع بعيداً كالصدى صوت شعبان)

شعبان: يمّه.. يمّه.. تتر.. يمه عطشان.. يمّه هاتي صدرك يمه...

تفصيل (7)

(بيت مروان وخديجة ، إنهما يتناولان العشاء، ضوء السراج لا يبدد العتمة وإنما يملأ المكان ظلالاً).

مروان: (يغرف لقمة من صحن الدبس) هذه اللقمة لك..

خديجة: لا.. أنا اكتفيت، وأنت لا تكاد تأكل شيئاً.

مروان: أنت من يحتاج إلى الغذاء، لا أنا (يمد اللقمة إلى فمها) افتحي فمك.

خديجة: والله اكتفيت. كُلْ أنت، والدبس يدفئ في هذا البرد.

مروان: للدف.. هناك ما هو أفضل من الدبس.

خديجة: (ضاحكة) إحذر.. لوّثت خدّي وذقني.

مروان: انتظري.. سأنظف كل شيء. (يقترب منها ويلحس قطرات الدبس حول شفتيها. يتضاحكان ، ويتدافعان).

خديجة: كفى.

مروان: ما زالت هناك قطرة.

(طرق على الباب.. يجفلان)

مروان: من يأتينا في هذه الساعة!

خديجة: لا أدري..

(ترفع الطعام فيما يذهب مروان إلى الباب)

مروان: من؟

أحمد: (من الخارج، وصوته مخمور) أنا .. أحمد.. اشتقت لك يا رجل. وأريد أن أسدي لك خدمة.

مروان: (متردداً) أهناك شيء ضروري؟!

أحمد: (من الخارج) نعم.. ضروري جداً.

(يلتفت مروان نحو خديجة كأنه يستشيرها . تهز خديجة كتفيها وكانها تقول لا أدري. بعد تردد قصير، يفتح مروان الباب، يندفع أحمد متطوّحاً إلى الداخل وإثره يدخل تتريان، يبدو مروان مبغوتاً وكذلك خديجة)

أحمد: جئت أفكّ عسرك المالي، وأضمن لك الأمان.. ماذا تظن؟! أنت دائماً في البال يا مروان، والدم لا يصير ماء. هذا الأميران يريدان حريراً فاخراً. وأنا قلت لهما، هناك رجل واحد لديه ما تريدان من الحرير الفاخر. وهما مستعدان للدفع. انظر .. كل منهما لديه كيس ملآن.

(يحاول أحمد أن يعرض الكيس على مروان، فيدفعه التتري ويرميه أرضاً).

أحمد: يا رجل.. نحن شربنا سرية. والذين يشربون سوية، يت.. يتآ.. يتآخون.

تتري (1): (وهو يلكز رفيقه فيما عيناه تلتهمان خديجة) إن زوجك جميل أيها الشامي.

مروان: (مرتبكاً) هل تريدان حريراً بالفعل؟

تتري(2): (وهو يتقدم نحو خديجة) بعدين.. بعدين..

مروان: (يريد أن يعترض طريقه) انهض يا أحمد.. ماذا فعلت بنا.. خذهما واخرج.

أحمد: (وهو يكرع من الزجاجة، وتزداد تعتعة صوته) لا تخف.. لا تخف.. هما يحبان المرح والمزاح.

(التتري ينحي مروان، ويتقدم حتى يصل إلى خديجة، يمسكها بيديه ويحملق فيها، تتغير ملامح خديجة تحت وطأة الرعب، وينحبس صوتها. إنها تصدر ما يشبه الفحيح).

مروان: (وهو يهجم عليه) اتركها.. اخرجوا جميعاً.. أيها السافل، خذ صحبتك وارحل.

(يحمل التتري خديجة غير عابئ بشيء ، ثم يضعها على الفراش. يغدو مروان كالمجنون، يسحب من جيب سترته سكيناً ويقفز على التتري، إلا أن التتري الثاني الذي يراقب كل شيء بعين فاحصة، يمتشق سيفه، ويعاجله بضربة تمزق عنقه. تطلق خديجة صرختها المحبوسة صرخة مفعمة بالعرب والغضب، تتلاحق الصرخات، والتتري يطبق عليها، ويشل حركتها لامبالياً بشيء)

مروان: (وهو يتمرغ على الأرض ويشخر مذبوحاً) أخوك.. لعنة الله.. الجنين.. أمي.. خديجة.. انتهت الحرب.. انتهت الحرب..

خديجة: مروان!

(يضع التتري يده على فمها)

أحمد: (ينهض وهو يتلفت بذعر) يا ربّ.. ماذا فعلت! يا رب.. ماذا فعلت!

(ينسل ويختفي في العتمة. يغلق التتري الآخر الباب وراءه فيما تتلاشى الإضاءة ببطء شديد).

مؤرخ قديم: وفيه، جمادى الآخرة، درّب تيمور عساكره نحو باب الجابية، وحاصر القلعة من داخل المدينة. ولما بدأوا ينقّبون الأسوار، أبدى أهل الشام همّة عالية في مساعدة التتار على نقبها. وكان ابن أبي الطيب يقودهم، وينادي فيهم "الهمة يا رجال، اقترب الخلاص" وكان تيمور قد نصب مناجيق وحدّافات، ومدافع كثيرة، ترمي على القلعة. وكانوا يرمون بالنشاب إلى الأسوار بحيث منعوا أحداً من الوقوف عليها.
وتهدمت أبراج القلعة كلها، والنقب من داخل المدينة شغّال.
وفيه، أوحلت الأرض من الأمطار والبَرَد.
وما زال الماء في بردى يفيض على الضفتين.

تفصيل (8)

(في القلعة. شرف الدين وسعاد).

سعاد: انتهى كل شيء.
شرف الدين: (دامع العينين) غَلَبنا الأهل والعدو والزمان.
سعاد: أين الله يا شرف الدين؟!
شرف الدين: لا أدري.
سعاد: هل تساورك الشكوك مثلي؟
شرف الدين: لا أدري.
سعاد: ألا يرانا! كيف يتخلى عنا، نحن الذين ندافع عن الحق؟ كيف تركنا وحدنا دون نجدة أو رحمة؟ ألم يَعِدْ أمثالنا بالنصر! ألم يَعِدْنا أنه قريب منا إذا نادينا وتضرعنا! أيجوز أن يمكّن لتيمور في الأرض، وأن يهزم فئته التي تقاتل بالعدل، وتدافع عن الحق!
شرف الدين: لا أدري.. لا أدري.
سعاد: نعم.. لا ندري.. وربما لن ندري أبداً. قلْ لي.. هل بحر النيل جميل؟
شرف الدين: آه.. كم وددت أن نراه معاً! لا.. لم يعد هناك مكان جميل ولم يعد هناك جمال.
سعاد: وأنا؟
شرف الدين: لا تجعلي قلبي يتفطّر.
سعاد: هل تتزوجني؟
شرف الدين: يا رب.. كيف أفهم أسئلتك؟
سعاد: افهمها كما هي.. إني جادة.. هل تتزوجني؟
شرف الدين: كيف أستطيع أن أمنّي نفسي؟!

سعاد: دعك من الذهول. وأجبني.

شرف الدين: يا رب.. وهل هذا ممكن! طبعاً أتزوجك.

سعاد: إذن .. هات يدك (تمسك يده اليمنى وتضع منديلاً على اليدين) أنا سعاد بنت المرحوم برهان الدين التاذلي أزوجك نفسي على سنة الله ورسوله.

شرف الدين: وأنا شرف الدين بن محمود الدسوقي أتزوجك على سنة الله ورسوله. فلنقرأ الفاتحة.

(يقرآن الفاتحة بصوت خافت)

سعاد: هكذا.. صرت زوجتك. إننا الآن متزوجان.

شرف الدين: (مذهولاً) هل نخبر أمك وأمير القلعة؟

سعاد: لا.. لن نخبر أحداً. سيكون زواجنا حلماً، أو أقصر من الحلم. غداً حين نسلم القلعة، لا يدري أي منّا ماذا ينتظره.

شرف الدين: غداً ، سنخرج من القلعة زوجين.

سعاد: ومن يدري. قد يترمل أحدنا قبل أن يأتي الغد.

شرف الدين: (خائفاً) ماذا تعنين؟ أعطونا أماناً ، ولن يحدث شيء حتى الغد.

سعاد: وما قيمة هذا الأمان! هل تقبل يا شرف الدين أن تمتد يد تترية إلى جسد امرأتك؟

شرف الدين: ماذا تخفين يا سعاد؟

سعاد: لا أخفي شيئاً.. وهذا الجدل لا يليق بعريسين. ألا تريد أن تكون لنا دخلة؟

شرف الدين: إني قلق وخائف.

سعاد: مع القلق والخوف لن تعرف كيف تقطفني، وسنفوّت عرسنا.. أهدا الآن، ودعنا نتأرجح على هذا الحلم العجيب.. تعال..

شرف الدين: لو يطمئن قلبي؟!

سعاد: ومن يبحث عن الاطمئنان في مثل هذا الوقت؟ إننا نحلم.. دعنا نحلم.. دعنا نحلّق فوق الأنقاض والعذاب.. دعنا نبدع نصراً صغيراً يخصّنا نحن الاثنين. سنعلو على تيمور والتتار، سنعلو على المرارة والهزيمة، وسنحلّق في سماء صيفية زرقاء. أغمضْ عينيك، وانزلق إلى الحلم، إننا نطير. إننا نطير. هل تحس أننا نطير؟!

شرف الدين: حقاً إننا نطير.

(يتعانقان ، يتماوجان، يتداخل جسداهما تداخلاً إيقاعياً وفاتناً. وببطء شديد تتلاشى الإضاءة فوقهما)

تفصيل (9)

(أمير القلعة آزدار في أبهى حلله، يبدو كأنه خرج لتوه من بين يدي المزين. يقف منتصب القامة، ويبدو واضحاً أنه يبذل جهداً كي يحافظ على انتصاب قامته. يدخل شهاب الدين وهو الآخر قد تزين وأصلح هندامه وانتصبت قامته).

شهاب الدين: حان الوقت أيها الأمير.

آزدار: لولا الأطفال والنساء، ويأس الرجال ، لوددت أن أدفن في هذه القلعة.

شهاب الدين: ليت الموت أكرمني، وجنّبني هذه اللحظة.

آزدار: هل تفحصت كل شيء؟

شهاب الدين: تفحصت قيافة الرجال واحداً واحداً، وزوّدتهم بكل أوامرك. لا تقلق.. سيكون موكبنا مهيباً، وجديراً بمآثرك.

آزدار: المأثرة لكم قبل أن تكون لي.

شهاب الدين: لولاك..

آزدار: (مقاطعاً) ماذا فعلت بابنة التاذلي؟

شهاب الدين: غُسّلت وكُفّنت وصلّى عليها شيخ القلعة. هي الآن في النعش، وسيحمل نعشها ستة من الرجال.

آزدار: حقاً.. كانت ابنة أبيها. وسنصرُّ على دفنها إلى جواره. لعلها فاقتنا حكمة. عجّلت موتها كي تتّقي العار، وتحمي شرفها من دنس التتار. هل نخرج؟!

شهاب الدين: (مغالباً الدمع في عينيه) بعد أن نخرج ، لن يعرف أي منا مصيره.. وربما لن نلتقي بعد الآن، ولا يتاح لنا أن نتبادل الكلام، أحب أن تعرف أيها الأمير، أني فخور لأني كنت إلى جانبك طوال هذه الحرب. ولا أخفي عنك.. أحياناً كنت لا أفهم مواقفك. وأحياناً، كانت تساورني الشكوك. ولكن حين كنت ترد على ابن أبي الطيب، بددت كثيراً من الشكوك وسوء الفهم. أعرف الان أن صمودنا لم يكن من أجل أهداف صغيرة، كالسلطان والإمارة، وأن مفهومك عن الولاء والواجب يتسع ليشمل الأمة وكيانها. ومع هذا بقيت في نفسي غمّة.. لو أننا حلمنا وجازفنا، تماماً كما يفعل الشعراء أحياناً، أما كان يمكن أن يتغير مجرى الأحداث.. وأن تكون هذه المأثرة بداية تحول وانبعاث..

آزدار: إني أفهمك يا شهاب الدين.. كانت قدرتك على الحلم ورغبتك في المجازفة تثيران إعجابي وحبي. وأعترف أني ترددت وخفت أن أجاريك في الحلم والمجازفة. في أوقات الضعف والانحلال، الأحلام باهظة التكاليف. وكنت أخشى دائماً أن نتوه في الحلم، ونضيّع الممكن. لا أعلم.. ربما كنت مخطئاً، أو تنقصني اندفاعة الشباب. ولكن منذ بداية هذه المحنة وأنا أتأمل ما حولي، فلا أجد إلا واقعاً موحلاً، وزمناً سقيماً. وفي الواقع الموحل والزمن السقيم، قد يكون إنجاز الممكن هو الحلم، وهو المجازفة. نعم.. أحببت قدرتك على الحلم، ورغبتك في المجازفة، وأرجو ألا تنسب ترددي وأخطائي إلى الضعف، أو إلى الحسابات الصغيرة.

شهاب الدين: هل تسمح لي أن اعانقك أيها الأمير..!

(يتعانقان عناقاً طويلاً، والدموع تنسكي من عيني شهاب الدين)

شعبان: (بعيداً كالصدى) يمه.. ماتت .. القلعة يمه.. جوعان .. يمه .. يمه..

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: وبعد أربعين يوماً من الحصار، وبعد أن نفذت الذخيرة والمؤونة ، واستحالت المقاومة، سلّم الأمير قلعته.
وكان موكبه حين خرج من القلعة أمراً عجباً. كان يتقدم رجال، وكلهم لا شُلّت أيديهم، في أحسن هيئة، يشمخون برؤوسهم عالياً، ويتقدمون بكل كبرياء وثبات.
وكان في الموكب نعش ابنة التاذلي التي قتلت نفسها كي لا تقع في أسر التتار.
وحين وقف أمير القلعة بين يدي تيمور، قابله بالسخط والغضب، وقال له: "أفنيت صاغيتي، وقضيت على حاشيتي، فإن قتلك مرة واحدة لا يشفي غليلي، ولكن أعذبك على كبر سنك، وأزيدك كسراً على كسرك" فقيّده بقيد زنته سبعة أرطال ونصف، ولم يُعرف له خبر.
وبعد أن تم لتيمور أخذ القلعة، طلب ابن مفلح وأصحابه، ولما وضعوا أمامه المال الذي فرضه، عبس في وجوههم، وقال:
"هذا لا يساوي في حسابنا إلا ثلث المبلغ، وظهر لي أنكم عجزتم." ثم قبض على ابن مفلح، وبعد أن ألزمه بكتابة جميع خطط دمشق، وحاراتها وسككها، أمر بضربه حدّ التلف.

تفصيل (10)

(في بيت ابن مفلح. ابن مفلح راقد على فراش الموت وعنده دلامة)

ابن مفلح: هل جئت تودعني؟!
دلامة: أطال الله عمرك. هي وعكة وتمر.
ابن مفلح: إني أميز الموت، وأحس دبيبه في جسدي.
دلامة: دعنا من الموت يا شيخ، وأجبني: ماذا جرى، وأين أخطأنا؟
ابن مفلح: إني أحاول أن أرتب جواب هذا السؤال لأني سأحتاجه حين أقف بين يدي الخالق.
دلامة: وماذا وجدت؟
ابن مفلح: أين أخطأنا يا دلامة؟ منذ البداية أخطأنا. حين نزعنا من الناس سلاحها أخطأنا. حين جردنا أسوارنا من دفاعاتها ، أخطأنا. حين صدّقنا وعود العدو، أخطأنا. بين الأعزل الخائر، وبين العدو المدجج بالسلاح، لا

يكون اتفاق، ولا سلام بل إذعان واستسلام. ني أعترف أمام الله أني أخطأت. ونفسي الأمارة بالسوء والتاجر دلامة، وابن خلدون، وعلماء السوء زيّنوا لنا الخطأ. لو قاتلنا، لما خسرنا ما خسرناه، ولما أصاب المدينة كل هذا الدمار. انظر.. لَم تُدمّر بيوت الناس وأرزاقها فقد، بل دمرت نفوسهم، وفسدت قلوبهم. ظهرت الخبائث، والأحقاد، والأنانيات، وصارت المدينة وكأنها غابة خلت من الدين والقيم والأخلاق. نعم.. منذ البداية أخطأنا، وكان الخطأ جسيماً.

دلامة: ولم أخطأنا؟ عقدنا معهم تجارة. ونفّذنا ما علينا. ألم يكن العقد واضحاً؟ ألم يعطونا كلمة وميثاقاً؟ فأين الخلل؟

ابن مفلح: إنك دعيٌّ معرفة يا دلامة. تحسب أن التجارة تستوعب المحنة وتحتوي العدوان. ولكن فاتك أن التجارة والعدوان توأمان. إن التجارة بين الأقوياء والضعفاء ليست بيعاً وشراءً، بل هي حرب وعدوان.

أخطأنا يا دلامة، وها نحن نخسر كل شيء. اذهب ودبر أمرك. قسّم تيمور أحياء المدينة على أمرائه، ولن يبقى في مخابئك ما يرنّ.

دلامة: ماذا تقول؟ أخبرني ما تعرفه . يجب أن أعرف..

ابن مفلح: اغرب عني، ودعني أمت بسلام.

دلامة: يجب أن أعرف.

ابن مفلح: (يغمض عينيه واهناً) اغرب عني يا دلامة.

(يتردد دلامة فترة ، يبدو زائغ العينين ثم يخرج على عجل)

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: وفرّق تيمور على أمرائه. فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ، ونزل كل أمير في قسمه، وطالب سكّانه بالأموال.

حينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وجرت عليهم من العذاب ألوان رهيبة كالضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكوساً، وغمر الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس، دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق. وكان الرجل إذا أشرف على الهلاك، يُخلّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. ومع هذا تؤخذ نساؤه وأولاده الذكور، فيتقاسمهم الأمير وأصحابه.

وكان الرجل المعذّب يرى امرأته أو ابنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل هذا من غير تستّر في النهار وبحضرة الملأ من الناس.

تفصيل (11)

(في دار دلامة. أمير وعساكر من التتار. يبدو دلامة معلقاً من رجليه ومنكوساً، وتحت رأسه كانون يوقد فيه الحطب، وقربه يقف ابنه مذعورا ودامع العينين)

الأمير: أين المال؟

دلامة: (محشرجاً) أعطيت كل ما لدي.

الأمير: شرموط.. كذاب..

دلامة: أقسم..

الأمير: شرموط.. أنت واحد لا يعرف الرب (للعساكر) انفخوا النار.

(يؤجج العساكر النار تحت رأسه ، فينطلق دلامة بالصراخ والعويل)

الأمير: أين المال؟

دلامة: (محشرجاً) ألم تفتّشوا البيت كله؟! لا مال.. لا مال..

الأمير: كذاب ابن كذاب. خذوا ابنه. وافعلوا به.

الابن: (مرعوباً) أبي..

(يجر عسكريان الابن، ويمضيان به إلى مكان جانبي)

الأمير: أهل الشام أرذال.. كذابون.. الكذب لا يمشي علينا.

الابن: (صارخاً متوجعاً من مكانه) أبي أنجدني يا أبي.. أبي أنقذني يا أبي.

دلامة: اصبر يا بني وتجلد.

الابن: (صارخاً كالجريح) لا أستطيع. قل لهم يا أبي.. أخبرهم إذا كنت تخفي شيئاً.

(يتحول صوت الابن إلى خوار وحشرجة)

الأمير: أين المال؟

دلامة: لا مال..

الأمير: شرموط. سأربي بك أهل الشام (إلى العساكر) غمّوه. وهاتوا حريمه.

(يندفع عساكر إلى داخل البيت، بينما يملأ أحدهم خرقة برماد ناعم ثم يجمع أطرافها، ويضعها على أنف دلامة المنكوس. ينفض رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويزرق وجهه، ويتصاعد من فمه لهاث مختنق، يخرج عسكريان من البيت وهما يجرّان ريحانة وخلفها نساء)

ريحانة: الكل.. تتار.. الكل.. تتار.

الأمير: جرّدوها من ثيابها.

ريحانة: (وهي تتخبط بين أيديهم) لا.. لا.. الكل.. تتار..

(يمسكها الأمير من يدها بعد أن تصبح شبه عارية، ويدوّرها حول رأس دلامة)

الأمير: انظر .. هذه محبوبتك.. هل تريد أن نفعل بها؟!

دلامة: (كالمحتضر) افعلوا ما تشاؤون.. لا مال..

ريحانة: (تبرق عيناها.. تتكلم كالطفلة) ماذا تريدون.. أيها.. التتار؟

الأمير: نريد المال.. أين يخبئ هذا الشرموط المال والذهب؟

ريحانة: الذهب.. في الخراء.

دلامة: (يشهق وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة) اخرسي يا ابنة القحبة.

الأمير: (يصفع ريحانة) هل تسخرين مني.!

ريحانة: إني.. لا.. أسخر.. والكل.. تتار: هو .. لا.. يعرف .. أني .. أعرف الذهب.. في.. الخراء.

الأمير: فسّري ماذا تعنين..

ريحانة: اكسر.. أرض .. الكنيف.. وانزل.. في الخراء.. تجد .. صناديق المال.. والذهب..

دلامة: (لافظاً أنفاسه) قتلتيني.. ايتها.. الـــ ..

الأمير: (يفتل معصم ريحانة، فتنثني متأوهة لتصبح في حضنه) سنرى إن كنت صادقة (إلى العساكر) اكسروا أرض الكنيف، وانزلوا إلى الخراء.

(تضحك ريحانة ضحكات قصيرة متلاحقة، وكأن أحداً يدغدغها، ثم يتعالى ضحكها تدريجياً، ويختلط بالبكاء فيما تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم: واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً. آخرها يوم الثلاثاء، الثامن والعشرون من شهر رجب، فهلك في هذه المدة بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله).

تفصيل (12)

(ابن خلدون وشرف الدين على أهبة الرحيل والعودة إلى مصر)

ابن خلدون: الحمد لله على الخلاص من ورطات الدنيا.

شرف الدين: واين الخلاص؟

ابن خلدون: ها نحن نعود بلا غرم كما جئنا. كلمت تيمور مرتين حتى رضي أن يفك أسرك.

شرف الدين: (بامتعاض) شكراً يا سيدي.

ابن خلدون: ما الذي لا يرضيك؟

شرف الدين: كيف تستطيع التحدث عن الخلاص من ورطات الدنيا والنار تلتهم المدينة، والطرقات تسدها الجثث والأعضاء المبتورة.. وامرأتي اختارت الموت، والأهل تفرقوا بين السبي والقتل..

ابن خلدون: زوجتك؟!

شرف الدين: لن تفهم شيئاً يا سيدي.

ابن خلدون: لا تفقد حياءك وأدبك. تغيرت كثيراً خلال هذه الرحلة. ما فات فات، ولنحمد الله على سلامتنا.

شرف الدين: (مباعداً بينه وبين دوره) لم يفهم ابن خلدون شيئاً، كان مشغولا بنفسه وطموحه. فلم تمسه معاناة الناس. لم يسمع بكاءنا، ولم يفهم أحوالنا. كانت هذه المحنة بالنسبة له، ورطة عابرة سلِم منها، وتجاوزها. أما شرف الدين فكيف يحبس دموعه.. وكيف يعتبر البقاء على قيد الحياة خلاصاً وسلاماً؟

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم: ولما قضى الأمراء الوطر من المدينة، أباحها تيمور للعساكر، فدخلوا كأمواج البحر. سيوفهم مسلولة، وهم مشاة. فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها، وسبوا النساء والأولاد والرجال، وساقوهم في حبال ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد. وكان اليوم عاصف الريح، فعمّ الحريق جميع البلد حتى صار اللهب يكاد أن يصل إلى السحب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

احترق الجامع الأموي والأسواق والقياسر والحمامات والبيوت.

وصارت دمشق، بعد البهجة والوفرة، أطلالاً بالية ورسوماً خالية، لا تُرى بها دابة تدبّ، ولا حيوان يهبّ، سوى جثث احترقت ، وصور في التراب تعفّرت. فإنا لله وإنا إليه راجعون لعظم هذه المصائب، وشناعة هذه النوائب.

تفصيل أخير

(الشيخ جمال الدين بن الشرائجي مرفوعاً على الصليب)

جمال الدين: أنا الشيخ جمال الدين بن الشرائجي ، آمنت أن العقل خير من النقل، وأن الله عادل لا يقدّر على عباده الفقر أو الذل، فأذاع أحدهم أمري، فاستدعاني قضاة دمشق الأربعة. وبعد السب والضرب، وإحراق كتبي، رموني في سجن القلعة. وحين حلّ تيمور في ظاهر المدينة، وجاء سلطان مصر والشام لمدافعته، أبكاني القهر، وعزّ علي ألا أكون مع الأمة في مواجهة هذه المحنة. فالتمست من السلطان النظر في أمري.

فلما سأل وعرف مقالتي، غضب وأمر أن يضيق علي في سجني. ثم رحل السلطان فجأة، وترك دمشق أكلة لتيمور، فقرر القضاة والأعيان أن يسلموا المدينة للعدو إلا قلعتها، فقد أبي الأمير آزدار إلا أن يقاوم ويقاتل فاتصلت بالأمير، ورجوته أن يطلق سراحي ، ويضمّني إلى مقاتليه، فخشي أن يلومه الناس، أو أن يؤخذ بذنبي.. وطلب مني مترفقاً أن أتجمل بالصبر، وأن أستعين بالله على بلائي، ثم انهزم صاحب القلعة، واستبيحت دمشق، وذات يوم قادني عساكر إلى حضرة تيمور. وكان يجلس عند قدميه نفر من علماء المسلمين عرفت منهم الشيخ محي الدين بن العز، والشيخ عبد الرحمن بن خلدون. فاستفسر عن خبري وفحوى خطابي فلما أخبروه بلسانه الأعجمي، علا وجهه الغضب، وأمر أن أُجلد وأُصلب حتى ينفذ فيّ قضاء الله. فعجبت من اتفاقهم في أمري على ما بينهم من الحرب وسفك الدماء.

(يدخل شعبان متجرجراً وفزِعاً، يحملق في المصلوب ثم يفرّ صارخاً)

شعبان: (وهو يركض بين الأنقاض) يمه.. فزعان.. الموت يمّ.. كله ميت يمه فزعان.. يمه الموت.. يمه فزعان.. صدرك يمه.. صدرك يمه.. عطشان يمه.. فزعان يمه..

مؤرخ قديم: وكان الماء يتدفق في بردى بزيادة وشدة لم تعهدهما دمشق منذ سنوات طوالٍ.

(تتلاشى الإضاءة)